

النَّحْوِيُّونَ الْأَعَاجِمُ وَأَثَرُهُمْ فِي الْعَرَبِيَّةِ

زانایانی ناعهره‌بی ریزمانی عهره‌بی و کاریگه‌رییان لهو زمانه‌دا

هشام أحمد خلف^١

^١ قسم اللغة العربية، كلية التربية الأساسية، جامعة حلبجة، مدينة حلبجة، إقليم كردستان، عراق

Corresponding author's e-mail: hisham.khalaf@uoh.edu.iq

ملخص:

كانت العربية ولا تزال لغة للمسلمين جميعا على اختلاف قومياتهم وألسنتهم، وهذا ما جعل الباب مفتوحا لدراساتها على مصراعيه، ولكل الدارسين من مختلف القوميات، وقد شهدت على امتداد تاريخها جهودا عظيمة لعلماء أفاض من غير أهلها الأصليين، فأسهموا في وضع الأسس المتينة لدراساتها، واكتشفوا بعض ظواهرها، ثم نشأ جدل حول دور هؤلاء العلماء قديما وحديثا، لذلك فقد حاولت في هذا البحث أن أسلط الضوء على دورهم، وأكشف جانبا من جهودهم العظيمة في أهم مدرستين لغويتين: البصرية والكوفية، متجاوزا المدارس الأخرى المشهورة تجنباً للإطالة واستغناء بأهمية هاتين المدرستين في تأسيس علم النحو والدراسات اللغوية المختلفة التي انبثقت منهما.

الكلمات المفتاحية: النحو، العربية، اللغة، العجم، الدراسات اللغوية، التأليف النحوي، النحويون الأعاجم.

پوخته:

زمانی عهره‌بی هه‌میشه زمانیک بووه بۆ سه‌رجه‌م موسو‌لمانان، سه‌ره‌رای جیاوازی نه‌ته‌وه‌و زمانه‌کانیان، نه‌مه‌ش وای کرد ده‌رگای تو‌یژینه‌وه‌کان له‌سه‌ر نه‌و زمانه‌ بو تو‌یژه‌رانی هه‌موو نه‌ته‌وه‌کان ک‌روه بی‌ت له‌سه‌ر پ‌شت، بۆیه له‌ درێژایی می‌ژووی ئه‌م زمانه‌دا، چه‌ندین هه‌ولێ مه‌زن له‌وباره‌وه‌ دراوه له‌لایه‌ن که‌سانیکه‌وه‌ که‌ خۆیان به‌ ره‌گه‌ز عهره‌ب نه‌بوونه، به‌شداریان کردووه له‌ دانانی بناغه‌ی تۆکه‌م بۆ لیک‌ۆلینه‌وه‌ له‌سه‌ری و هه‌ندی له‌ دیارده‌کانیان دۆزیوه‌ته‌وه، ئینجا چی له‌ می‌ژووی دێرین و چی له‌ ئیستادا، مشتوم‌رێک له‌سه‌ر نه‌و هه‌ولانه‌ درووست بووه، بۆیه منیش لێ‌رده‌ هه‌ولم داوه تیشک به‌خه‌مه‌ سه‌ر به‌شیک له‌و هه‌ولنه‌ مه‌زنانه له‌په‌نگه‌ی گ‌رنگ‌ترین دوو قوتابخانه‌ی زمانه‌وانی که‌ نه‌وانیش بریتین له‌ قوتابخانه‌ی به‌سه‌رو کوفه‌، له‌به‌ر نه‌وه‌ی باسه‌که‌ش درێژ نه‌بیته‌وه‌ چاوپۆشیم کردووه له‌ باس کردنی قوتابخانه‌ به‌ناوبانگه‌کانی تر، پ‌لپ‌شت به‌ گ‌رنگی ئه‌م دوو قوتابخانه‌یه‌ له‌ دامه‌زراندنی ریزمانی عهره‌بی و لیک‌ۆلینه‌وه‌ جیاجیاکان که‌ لێ‌یانه‌وه‌ سه‌رچاوه‌ی گ‌رتووه‌.

گۆفاری زانکۆی هه‌له‌بجه: گۆفاریکی زانستی ته‌کادیمیه زانکۆی هه‌له‌بجه ده‌ری ده‌کات	
به‌رگ	٦ ژماره ١ سالی (٢٠٢١)
رێککه‌وته‌کان	رێککه‌وتی وه‌رگرتن: ٢٠٢٠/٤/٩ رێککه‌وتی په‌سه‌ندکردن: ٢٠٢١/٥/٧ رێککه‌وتی بلا‌وکردنه‌وه: ٢٠٢١/٦/٣٠
ئیمه‌یلی تو‌یژه‌ر	hisham.khalaf@uoh.edu.iq
ما‌فی چاپ و بلا‌وکردنه‌وه	© ٢٠٢١ م. د. هشام أحمد خلف، گه‌یشتن به‌م تو‌یژینه‌وه‌یه‌ ک‌راوه‌یه له‌ژێر په‌زنامه‌ندی CCBY-NC_ND 4.0

Summary:

Arabic was and still is a language for all Muslims of different nationalities and languages, and this is what made the door wide open for its study, and for all students of different nationalities. Throughout its history, it has witnessed great efforts by distinguished scholars other than its original inhabitants, who contributed to laying the solid foundations for its study, and discovered some of its phenomena, then a controversy arose about the role of these scholars, ancient and modern, so I tried in this research to shed light on their role, and reveal part of their great efforts in the two most important linguistic schools: the Basra School and the Kufa School, bypassing the other famous schools in order to avoid prolonging and dispensing with the importance of these two schools in establishing the science Grammar and the various linguistic studies that emerged from them.

المقدمة:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنَّ اللغةَ العربيَّةَ منذُ بزوغ فجر الإسلام وانتشاره في أرجاء الأرض لم تعد حكرًا على العرب وحدهم، لا في استعمالها، ولا في دراستها، ولا في تعليمها، بل غدت لغةً لأُمَّةٍ كبيرةٍ تمتدُّ من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، وقد برعَ فيها رجالٌ من العجم براعةً عجيبةً، فأتقنوها علمًا ودرايةً، وأجادوها نطقًا، وصاروا فيها أئمةً، وبلغوا فيها مبلغًا لم يصله كثيرٌ من أهلها، وكان لهؤلاء الرجال أثرٌ كبيرٌ في تاريخ الدِّراسات اللغويَّة العربيَّة لا يمكنُ التغافلُ عنه ولا إنكاره، وكان هذا الأثرُ ووجهه المتنوعُ دافعًا قويًّا لتناول هذا الموضوع بالدراسة والتتبُّع في هذا البحث الموجز لذاك الأثر العظيم.

وتبرزُ أهميَّةُ هذا البحث في إبرازه لدور العلماء غير العرب في الدِّراسات اللغويَّة العربيَّة وجوانب هذا الدور، وقد استعنتُ في إبرازه بالمصادر العربيَّة القديمة من كتب التَّراجم واللغة، وبعض المصادر الحديثة التي تحدثت عن تاريخ العربيَّة ونشأتها. وقد حاولتُ في هذا البحث الإجابة عن تساؤلٍ هامٍّ يتعلقُ بما سبقَ وهو: هل كانَ للعلماء من غير العرب أثرٌ حقيقيٌّ في نشأة النَّحو وتطوره؟ وما طبيعَةُ هذا الأثر؟ وهل كان لهم دورٌ مستقلٌّ عن غيرهم من العرب أم كانوا شركاء فيه أم كانوا تبعًا للعلماء العرب في دراسة النَّحو واللغة العربيَّة عمومًا؟ ومن صاحب السَّبق في هذا الميدان؟

وقد تناولَ هذا البحثُ علماء المدرستين الكبيرتين: البصرة والكوفة دونَ غيرهما من المدارس النَّحويَّة الأخرى المعروفة؛ لسبقهما وعظَم دورهما، ولتبعيَّة مَنْ جاءَ بعدهما لهما في مختلفِ الأمصارِ والأزمان. لذلك فقد كانَ هذا البحثُ مُتكوَّنًا من هذه المُقدِّمةِ وبعدها تمهيدٌ فيه حديثٌ ضروريٌّ عن نشأة النَّحو وأطواره؛ لكي نفهم دورَ العلماء الأعاجِم في كلِّ طورٍ من أطوارِ نشأة النَّحو، ثُمَّ توضيحٌ لمعنى النَّحويِّين الأعاجِم وما المقصودُ بهذا المصطلح في هذا البحث؟ ثُمَّ انقسمَ البحثُ على ثلاثة مباحث:

الأول: طبقات النَّحويِّين البصريين، وتحدَّثتُ فيه عن أعلام النَّحو البصريِّ وطبقاتهم مُترجمًا للأعاجِم منهم ومُبيِّنًا لأثرهم وفقًا لتقسيم الزَّبيدي في كتابه طبقات النَّحويِّين واللغويِّين؛ لأنَّه من أكثرِ الكُتُب المُتقدِّمة تنسيقًا لطبقات النَّحويِّين وعصورهم، مُتجاوزًا بعضَ الخلاف بين المؤلفين في التَّراجم للطبقاتِ وأسبقية مَنْ فيها تجنُّبًا للإطالة، ولُبَّعد هذا الخلاف عن روحِ البحث.

الثاني: طبقات النَّحويِّين الكوفيِّين، وتحدَّثتُ فيه عن أعلام النَّحو الكوفيِّين حسبَ طبقاتهم، فترجمتُ للأعاجِم منهم مُبيِّنًا أثر كلِّ منهم. الثالث: الأثرُ العامُّ للنَّحويِّين الأعاجِم في العربيَّة، وتحدَّثتُ فيه عن الأثر العامِّ للنَّحويِّين الأعاجِم بجانبيه الإيجابيِّ والسَّليبيِّ في نقاطٍ مُجملةٍ

وَمُخْتَصَرَةً لِإِبْرَارِ فَحْوَى الْبَحْثِ بَعْدَمَا فَصَّلْتُ هَذِهِ الْأَثَارَ فِي الْمُبْحَثِينَ الْأَوَّلِينَ.

ثُمَّ خَتَمْتُ الْبَحْثَ بِأَهَمِّ النَّتَائِجِ الَّتِي تَوَصَّلْتُ إِلَيْهَا هَذِهِ الدِّرَاسَةُ السَّرِيعَةُ، ثُمَّ ثَبَّتُ بِأَهَمِّ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ.

التَّهْنِيطُ

نَشَأَةُ النَّحْوِ وَأَطْوَارُهُ:

النَّشَأَةُ:

كَانَ لظُهُورِ اللَّحْنِ فِي مَرَاكِزٍ مُتَقَدِّمَةٍ مِنْ تَارِيخِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ، وَانْتِشَارِهِ مَعَ دُخُولِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى فِي الْإِسْلَامِ، أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي نَشْوَ النَّحْوِ، وَإِدْرَاكِ الْحَاجَةِ إِلَى الْإِهْتِمَامِ بِاللُّغَةِ عَامَّةً وَالنَّحْوِ خَاصَّةً، وَالشَّوَاهِدُ لظُهُورِ النَّحْوِ كَثِيرَةٌ مِنْ زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرُورًا بِزَمَنِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَلَيْسَ انْتِهَاءً بِالْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ، قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ: «وَعَلِمَ أَنَّ أَوَّلَ مَا اخْتَلَفَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ فَأُحْوَجَ إِلَى التَّعْلِيمِ الْإِعْرَابُ؛ لِأَنَّ اللَّحْنَ ظَهَرَ فِي كَلَامِ الْمَوَالِي وَالْمُتَعَرِّبِينَ مِنْ عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَدْ رَوَيْنَا أَنَّ رَجُلًا لَحَنَ بِحَضْرَتِهِ فَقَالَ: «أُرْشِدُوا أَحَاكِمَ فَقَدْ ضَلَّ». وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لِأَنَّ أَقْرَأَ فَاسْقِطَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ فَالْحَنَ» (أَبُو الطَّيِّبِ الْغَوِي، ١٤٣٠هـ، ٥). وَكُتِبَ الْلُغَةُ زَاخِرَةً بِنَمَازِجٍ كَثِيرَةٍ لِمَظَاهِرِ اللَّحْنِ أَغْفَلْتُهَا اخْتِصَارًا، فَقَدْ بَدَأَ النَّحْوُ أَوَّلَ مَرَّةٍ عَلَى يَدِ أَبِي الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ عَلَى أَرْجَحِ الْأَقْوَالِ (أَبُو الطَّيِّبِ الْغَوِي، ١٤٣٠هـ، ٥؛ الطَّنْطَاوِيُّ، ٢٠٠٥م، ٢٢)، وَأُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ (النَّحْوِ) تَيَمُّنًا بِقَوْلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ رَأَى صَنِيعَ الدُّؤَلِيِّ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا النَّحْوُ الَّذِي نَحَوْتُ!» (الْأَنْبَارِيُّ، ١٩٨٥م، ١٩). وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَجُودِ أَسْبَابٍ أُخْرَى دِينِيَّةٍ وَقَوْمِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ (الْحُلَوَانِيُّ، ١٩٧٩م، ١٧-٣١)، أَدَّتْ إِلَى الْعِنَايَةِ بِالنَّحْوِ وَتَقْعِيدِهِ إِلَّا أَنَّ اللَّحْنَ يَكَادُ يَكُونُ السَّبَبُ الْأَوَّلُ وَالْأَهَمُّ لذلِكَ.

أَطْوَارُ النَّحْوِ:

بَعْدَ أَنْ وُضِعَتْ اللَّبَنَاتُ الْأُولَى لِلنَّحْوِ عَلَى يَدِ أَبِي الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ، بَدَأَتْ مَرَحَلَةُ التَّأْسِيسِ لِلنَّحْوِ عَلَى يَدِ النَّحْوِيِّينَ الَّذِينَ عَاصَرُوهُ وَالَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَهُ، وَظَلَّ النَّحْوُ يَسِيرُ عَلَى وَتِيرَةٍ مُتَصَاعِدَةٍ مِنَ الدِّرَاسَةِ وَالتَّأْلِيفِ فِي الْبَصْرَةِ وَحَدَّهَا مَا يُقَارِبُ مِائَةَ عَامٍ، وَكَانَ الْكُوفِيُّونَ حِينَئِذٍ عَاكِفِينَ عَلَى حِفْظِ الْأَشْعَارِ وَالْأَخْبَارِ وَرَوَايَتِهَا وَتَنَاقُلِ النُّوَادِرِ. ثُمَّ نَشَأَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ تَنَافُسٌ وَتَصَارُعٌ عَلَى الْغَلَبَةِ وَالسَّبْقِ أَعَقَبَ التَّعَاوُنَ الَّذِي رَامَ اسْتِكْمَالَ قَوَاعِدِ النَّحْوِ، فَكَانَ نَتِيجَةُ هَذَا التَّنَافُسِ أَنَّ ظَهَرَ الْمَذْهَبُ الْكُوفِيُّ مُنَافِسًا قَوِيًّا لِلْمَذْهَبِ الْبَصْرِيِّ، وَنَشَأَ تَبَعًا لذلِكَ الْاِخْتِلَافُ بَيْنَ أَعْلَامِ الْمَذْهَبَيْنِ، فَأَصْبَحَتْ الْبَصْرَةُ وَالْكُوفَةُ مَوْطِنَيْنِ لِمَذْهَبَيْنِ عَظِيمَيْنِ فِي النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ، وَكَانَ كُلُّ مَذْهَبٍ بَعْدَهُمَا تَبَعًا لِهَؤُلَاءِ مِنْ جِهَةٍ مَا. ثُمَّ انْتَقَلَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْمَذْهَبَيْنِ إِلَى بَغْدَادَ وَهَنَّاكَ التَّقَى رِجَالُ الْمَذْهَبَيْنِ، وَخَلَطَ بَعْضُهُمْ شَيْئًا مِمَّا عِنْدَ الْآخَرِ، فَنَشَأَ عَنْ ذلِكَ مَذْهَبٌ جَدِيدٌ عُرفَ بِالْمَذْهَبِ الْبَغْدَادِيِّ، وَظَلَّ هَذَا الْمَذْهَبُ قَائِمًا إِلَى أَنْ احْتَلَّ الْمَغُولُ بَغْدَادَ وَتَمَزَّقَتِ الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ شَرَّ شَرِّ مَزَمَرٍ، وَحِينَئِذٍ بَدَأَ الْعُلَمَاءُ يَرْتَحِلُونَ مِنْهَا إِلَى الْأَمْصَارِ الْأُخْرَى الْأَمَنَةِ مِثْلَ: مِصْرَ وَالشَّامِ وَبِلَادِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ قَبْلَ سَقُوطِهَا، فَظَهَرَتْ مَذَاهِبٌ وَمَدَارِسُ نَحْوِيَّةٌ جَدِيدَةٌ فِي تِلْكَ الْأَمْصَارِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَذَاهِبَ اعْتَمَدَتْ فِي نَشْأَتِهَا عَلَى الْاِخْتِيَارِ وَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ آرَاءِ الْمَذْهَبَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَوْرٌ فِي تَطْوِيرِ النَّحْوِ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ لِمَنْ سَبَقَهُمْ، بَلْ عُرِفَ عَنْهُمْ مُحَاوَلَةُ تَيْسِيرِهِ وَتَبْسِيطِهِ لِلدَّارِسِينَ (الطَّنْطَاوِيُّ، ٢٠٠٥م، ٣٠-٣١؛ وَفَاخِرٌ، ٢٠١٧م، ١٩-٢٠). وَقَدْ كَانَ لِنَشْوَ النَّحْوِ وَنُضُوجِهِ أَرْبَعَةُ أَطْوَارٍ تَوَزَّعَتْ بَيْنَ الْمَذْهَبَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ، وَهِيَ:

١ - طَوْرُ الْوَضْعِ وَالتَّكْوِينِ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الطَّوْرُ بَصْرِيًّا بِامْتِيَازٍ، وَيَمْتَدُّ مِنْ زَمَنِ أَبِي الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ إِلَى أَوَّلِ زَمَنِ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ وَانْتَهَى كُلُّهُ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ، وَشَمَلَ طَبَقَتَيْنِ بَعْدَ الدُّؤَلِيِّ مِنْ طَبَقَاتِ الْبَصْرِيِّينَ بِحَسَبِ بَعْضِ التَّقْسِيمَاتِ (الطَّنْطَاوِيُّ، ٢٠٠٥م، ٣٢)، وَخَمْسَ طَبَقَاتٍ بِحَسَبِ تَقْسِيمِ الرَّبِيدِيِّ فِي كِتَابِهِ طَبَقَاتِ النَّحْوِيِّينَ وَاللُّغَوِيِّينَ الَّذِي اعْتَمَدْتُهُ فِي هَذَا الْبَحْثِ، وَهَذِهِ الطَّبَقَاتُ الْخَمْسُ كَانَتْ عَلَى مَرَحَلَتَيْنِ: مَرَحَلَةُ أَوَائِلِ النُّحَاةِ الَّذِينَ هُمْ فِي أَغْلَبِهِمْ تَلَامِيذُ الدُّؤَلِيِّ، وَكَانَتْ مَرَحَلَتُهُمْ تَتَصَفَّى بِوَضْعِ الْقَوَاعِدِ وَتَأْصِيلِهَا وَتَبْوِيهِهَا وَلَمْ تَشْهَدْ ظُهُورًا لِلْقِيَاسِ وَلَا لِلتَّصْنِيفِ الْمُتَكَامِلِ سِوَى نَتْفٍ هُنَا وَهَنَّاكَ. وَكَانَ ظُهُورُ الْقِيَاسِ وَالتَّصْنِيفِ فِي الْمَرَحَلَةِ الثَّالِيَةِ، وَهِيَ مَرَحَلَةُ كِبَارِ النَّحْوِيِّينَ الَّذِينَ عُرِفَ بِهِمُ الْمَذْهَبُ الْبَصْرِيُّ وَعَلَى أَيْدِيهِمْ تَأَسَّسَ النَّحْوُ، وَهُمْ كَثُرَ قِيَاسًا بِالْمَرَحَلَةِ السَّابِقَةِ، وَفِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ وُضِعَتْ قَوَاعِدُ جَدِيدَةٌ

واستخرجت ضوابط كثيرة من حركة النقاش العميقة، ومن تتبّع النصوص القديمة، ثم تبع ذلك اختصار فكرة التعليل وتفرغ القياس على يد عبد الله بن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وهما أعجميان، واستمرت حركة الدراسات والبحث النحوي حتى ملأت الكتب واستنفدت المداد (الطنطاوي، ٢٠٠٥م، ٢٧-٢٩).

٢ - طور النشوء والنمو، وهو طور مشترك بين البصريين والكوفيين، وقد بدأ هذا الطور من عصر الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه حتى مطلع القرن الثالث الهجري عند رحيل الأخفش والفراء، وشهد ثلاث طبقات من البصريين وثلاثاً من الكوفيين، واتسم هذا الطور بنشوء النحو واستقامته على سوق قوية، حيث اجتهد علماء المدرستين في التقصي والاستقراء في كلام العرب، وأعملوا فيه فكرهم لتتبع الشواهد واستخراج القواعد والاستدلال لها بشواهدهم على ما استنتجوا منها من قواعد، واتسم أيضاً ببروز نحويين كبار أخذوا على عاتقهم التفرغ له والاهتمام به حتى بلغ ذروته، ومن أبرز هؤلاء: الخليل وسيبويه والأخفش؛ والكسائي والفراء، وكان أكثرهم من العجم كما سيظهر، واتسم هذا الطور أيضاً بالاهتمام بالدراسات النحوية في الغالب ممزوجة بالدراسات الصرفية أحياناً، واتسم أيضاً بظهور المؤلفات النحوية واللغوية المعجمية ذات القيمة الكبيرة في تاريخ العربية، وكانت أبرز سمات هذا الطور هو تلمذه نحا الكوفة على يد نحا البصرة ونشأتهم تحت رعايتهم ثم استقلالهم (فاخر، ٢٠١٧م، ٢٥-٢٨).

٣ - طور النضوج والكمال: وهو طور مشترك بين البصريين والكوفيين أيضاً، وقد بدأ هذا الطور من عهد أبي عثمان المازني البصري، ويعقوب بن السكيت الكوفي، إلى آخر عصر المبرد البصري، وتعلب الكوفي، وقد استغرق طبقة من كل مدرسة، وقرناً من الزمن هو القرن الثالث الهجري (الطنطاوي، ٢٠٠٥م، ٣٩). ومن أبرز سمات هذا الطور: أنه كان غاية الكمال للنحو ونهايته في التناقص، وكان علماء خاتمة أئمة الاجتهاد والبحث والتنقيب في النحو، حيث أكملوا ما فات السابقين وشرحو ما أجملوا وأكملوا وضع الاصطلاحات وهدبوا التعريفات، وأولوا وخرجوا وزادوا في الأمثلة والشواهد، وظلت مصنفاتهم شاهدة على جهدهم إلى اليوم. وفي هذا الطور أيضاً استقل علم الصرف عن النحو وحظي بتأليف مستقل وبرر فيه علماء أفذاذ. ومن سمات هذا الطور أيضاً ظهور موسوعات كبيرة في اللغة والأدب وصل بعض منها وفقده الآخر. وفي هذا الطور بلغ الخلاف بين المدرستين أوجه وزادته المناظرات سعيًا واشتعالًا يغذيها الخلفاء والأمراء حيناً، والعداوة والبغضاء والعصبية حيناً آخر، وانتهت هذه المناظرات بهجرة الكثير من رؤساء المصنفين وعلمائهما إلى بغداد واستقرارهم فيها بعد الاضطرابات التي حلت بالبصرة، فكان هذا باباً لطور جديد يؤذن بامتزاج وتزاوج بين المدرستين (فاخر، ٢٠١٧م، ٣٠-٣٢).

٤ - طور الترجيح والتبسط في التصنيف: وهذا الطور هو ثمرة كل الأطوار السابقة وفيه تليف لمذهبي المدرستين الكبيرتين في النحو، ولكنه تجاوزهما في المكان والزمان، فقد كان مركزه الأساس هو بغداد، ثم توسع وانطلق إلى آفاق جديدة في الأندلس ومصر والشام، وقد عاش في بغداد ثلاثة قرون ونصف القرن حتى سقوطها على يد التتار، وعاش في الأندلس قرنين هما السادس والسابع الهجريان إلى أن سقطت في يد الصليبيين، وأما في مصر والشام فقد عاش ثلاثة قرون أعقبت انهيار العلم في بغداد وهي السابعة والثامن والتاسع (فاخر، ٢٠١٧م، ٣٣)، ولهذا الطور رجاله وعلماءه من العرب وغير العرب، وأهم سمات هذا الطور هو المفاضلة بين آراء المدرستين الكبيرتين واختيار ما أثير منهما، (ولقد أمعنوا في هذا الاختيار، فاصطفوا مسائل ذات بال مزيجاً من المذهبين، على أنهم قد أسلمهم هذا الاستقراء البالغ خلال تلك الأيام إلى العثور على قواعد أخرى من تلقاء أنفسهم لا تمت بصلة إلى المذهبين تولدت لهم من اجتهادهم قياساً وسامعاً) (الطنطاوي، ٢٠٠٥م، ١٥١)، وشهد هذا الطور الكثير من المصنفات الكبيرة والشروح المطولة للكتب السابقة.

النحويون الأعاجم:

الأعاجم جمع أعجمي وعجمي، و (الأعجمي، معناه في كلام العرب: الذي في لسانه عجمة، وإن كان من العرب. والعجمي: الذي أهله من العجم، وإن كان فصيح اللسان. يقال: رجل أعجمي، ورجل أعجم: إذا كان في لسانه عجمة) (الأنباري، ١٩٩٢م، ٥٥/٢) فمن لا يفصح كلام العرب فهو أعجمي؛ لأن في لسانه عجمة وهي ضد الفصاحة، وإن كان عربياً؛ لأن بعض العرب ممن نشؤوا في بلاد العجم إزدبان

الفتوحات، قد اختلطت ألسنتهم فما عادوا فصحاء؛ وكذلك الذين اختلطوا بالعجم في بلاد العرب بعد دخول الأُمم في الإسلام فبدؤوا يلحنون في كلامهم، وبدت ظاهرة اللحن جلية في المجتمع مما استدعى وضع النحو على يد أبي الأسود الدؤلي كما هو معزوف (الحلواني، ١٩٧٩م، ٢٧)، ومن كان أصله من غير العرب فهو عجمي وإن أجاد لغة العرب وأتقنها، قال الأزهري: «ورجل عجمي، إذا كان من الأعاجم، فصيحاً كان أو غير فصيح» (الأزهري، ٢٠٠١م، ٢٤٩/١؛ وابن منظور، ١٤١٤هـ، ٣٨٧/١٢) فحين تطلق كلمة الأعاجم، والأعجمي، والعجم، فليس المراد بها الانتقاص من غير العرب، بل المراد التفريق بين مدلولات هذه الكلمات، وقد استعملت كلمة الأعاجم في هذا البحث للدلالة على التحوين من غير العرب، وهو معنى مستساغ في هذه اللفظة، فقد جاء في الدرر النقي في شرح ألفاظ الخري: «الأعجمي: ضد العربي، قال الله عز وجل: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ} [فصلت ٤٤]. والأعجمي: نسبة إلى العجم» (ابن المبرد، ١٩٩١م، ٧١٩/٣)، وقد تطلق على كل لغة غير العربية كما جاء في مجمع بحار الأنوار: «(الأعجمي) كل لغة خالفت العربية» (جمال الدين، ١٩٦٧م، ٥٢٨/٣). فعلى هذا تكون اللغات الأخرى أعجمية بالنسبة للعربية، كما أن العربية تعد أعجمية بالنسبة للغات الأخرى على حد سواء. والتحوين الأعاجم كانوا ولا يزالون يشكّلون ظاهرة كبيرة في العربية لا تكاد تجد لها مثيلاً في اللغات الأخرى لما حظيت به هذه اللغة من اهتمام كبير بين الدارسين المسلمين بل وحتى غير المسلمين؛ لأنها المفتاح الأبرز للولوج إلى الإسلام ودراسة القرآن الكريم والعلوم الشرعية المرتبطة به، وكانت كتب اللغة وتاريخها تتركز بسيرة هؤلاء العلماء وجهودهم في خدمة العربية، وكان يُشار إليهم في الكثير من تلك المصادر بالمؤالي نظراً لالتحاقهم بقبائل عربية عريقة تحت نظام الولاء المعروف بين القبائل العربية آنذاك، إذ أصبح نظام الولاء في الإسلام على ثلاثة أقسام: الرقي، والعتيق، والمؤالاة، بعد أن كان أربعة في الجاهلية ورابعها ولاء الجوار، فدخل فيه العربي وغير العربي، ثم أصبح الولاء يُطلق بعمومه على غير العرب (المقداد، ١٩٨٩م، ٤٠، ١٢٠، ١٣٥؛ والنجار، ١٩٤٩م، ١٣)، قال الدكتور محمد النجار: «والباحثون في التاريخ الإسلامي حين يذكرون المؤالي يقصدون بهم كل من أسلم من غير العرب، وذلك لأن هؤلاء إما أن يكون أصلهم أسرى حرب استرقوا ثم أعتقوا فصاروا مؤاليًا وإما أن يكونوا من أهل البلاد المفتوحة وهؤلاء كانوا حين يسلمون ينضمون إلى العرب ويدخلون في خدمتهم، ويتحالفون معهم لكي يعتزوا بشوكتهم وقوتهم وبذلك يصبحون مؤاليًا أيضًا بالجلف والمؤالاة» (النجار، ١٩٤٩م، ١٣) وبذلك جرى العرف أيضًا في كتب التراجم فتراهم يذكرون اسم العالم ثم يُنَوَّن بمؤاليه، فيقولون: مؤالي بني فلان، ومؤالي فلان كما سيبدو لك واضحًا في الصفحات اللاحقة من هذا البحث. والغالب في ذلك أنهم من غير العرب، لذلك كان هذا المصطلح مقياس

البحث في تحديد التحوين الأعاجم.

المبحث الأول: طبقات البصريين

الطبقة الأولى:

في هذه الطبقة نحويان: أبو الأسود الدؤلي، وعبد الرحمن بن هُرْمَز، الأول، عربي يرجع نسبه إلى كنانة، وهو المؤسس الأول للنحو على الرّاجح، والثاني غير عربي.

عبد الرحمن بن هُرْمَز:

هو عبد الرحمن بن هُرْمَز بن كيسان يُعرف بالأعرج وهو مؤالي من مؤالي مُحَمَّد بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ولذلك عُرف بالهاشمي أيضًا، ويكنى بأبي داوود (ابن حبان، ١٩٧٣م، ١٠٧/٥)، وهو من أوائل من وضعوا قواعد العربية، فقد كان من أعلم الناس بالنحو والأنساب وخاصة أنساب قريش. وهو أحد القراء أيضًا (الزبيدي، د.ت، ٢٦؛ والأنباري، ١٩٨٥م، ٢٤)، بل عدّه بعض الناس أول من رسم النحو، وعدّه بعضهم واحدًا من ثلاثة اختلف في أوليتهم في وضع النحو، وهم: أبو الأسود الدؤلي، ونصر بن عاصم الليثي، وعبد الرحمن بن هُرْمَز (السيرافي، ١٩٦٦م، ١١).

كان يروي عن أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه، وروى عنه الزُّهري وأبو الزناد، وهو من الثقات في رواية الحديث، مات بالإسكندرية سنة سبع عشرة

وَمَائَةٍ وَكَانَ يَكْتُبُ الْمَصَاحِفَ. كَمَا قِيلَ إِنَّ الْإِمَامَ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ كَانَ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ، لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُ الْعَرَبِيَّةَ (التنوخي، ١٩٩٢م، ١٦٣). وهو مدنيّ تابعيّ أخذ علمه في النحو من أبي الأسود الدؤليّ، ونشره في المدينة؛ ولذلك قيل: هو أوّل من وضع النّحو، وأخذ القراءة عن عبد الله بن العباس وأبي هريرة رضي الله عنهم جميعاً، وأخذ القراءة عنه نافع بن أبي نعيم. انتقل إلى الإسكندرية في مصر مُرابطاً في سبيل الله، فمات هناك سنة سبع عشرة ومائة للهجرة (القفطي، ١٩٨٢م، ١٧٣/٢).

أثره في العربية:

على الرّغم من أنّ ابن هُرْمَزٍ لم يترك كتاباً ولا مؤلّفاً يشهد لفضله، إلّا أنّ الرّجل كان صاحب أثر لا يُنكر في العربيّة وفي وقت مبكر من نشوء قواعدها وأصولها الأولى، وقد عرف أهل زمانه فضله، فشهدوا له بالسّبق حتّى ذهب بعضهم إلى أنّه هو أوّل من وضع النّحو، ومع أنّ هذا المذهب مرجوح بقول الكثير من مؤرّخي اللغة الذين يكادون يُجمعون على أبي الأسود الدؤليّ في هذا إلّا أنّ هذه شهادة عظيمة بعلمه وسبقه حتّى استحقّ أن يُنافس هؤلاء الأفاضل من أهل اللغة نفسها، بل عزيّ إليه الفضل في نشر النّحو في المدينة وأطلق ابن برهان في شرحه للمع على المدينة لقب مدرسة نحويّة مُراعاة لابن هُرْمَزٍ إذ قال: « النّحاة جنسٌ تحتها ثلاثة أنواع: مدنيّون، بصريّون، كوفيّون » (العكبري، ١٩٨١م، ١؛ والقفطي، ١٩٨٢م، ١٧٣/٢)، ولذلك أيضاً قصده الإمام مالك بن أنس طلباً لما عنده من علم في العربيّة، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً!

الطبقة الثّانية:

في هذه الطبقة أربعة نحويّين: نَصْرُ بْنُ عَاصِمٍ اللَّيْثِيُّ، وَيَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ، وَعَنْبَسَةُ الْفَيْلِ، وَمَيْمُونُ الْأَقْرَنُ. أمّا نصر فهو عربيّ، وأمّا يحيى فهو معدود في بني ليث، وادّعى الهذليّون أنّه حليفهم، ولا يلزم من الحلف كونه أعجميّاً (ابن سلام، د.ت، ١٣/١؛ والزبيدي، د.ت، ٢٧) كما تقدّم بيّانه. وأمّا ميمون فلا تذكر المصادر شيئاً عن نسبه، ولا ولائه، ممّا يجعل عَنْبَسَةَ الْأَعْمِيَّ الوحيد في هذه الطبقة. عَنْبَسَةُ الْفَيْلِ:

هو عنبسة بن معدان مولى مهرة، وقيل: مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو المعروف بالفيل (الزبيدي، د.ت، ٢٧؛ ابن عساكر، ١٩٩٥م، ٦١/٧٤). أخذ النّحو عن أبي الأسود، (وروى الشعر، وانتسب إلى مهرة بن حيدان، وروى لجري شعراً، فبلغ ذلك الفرزدق، فقال

يهجوه:

لقد كان في معدان والفيل زاجر ... لعنبة الراوي على القصائد) (الأنباري، ١٩٨٥م، ٢٣)، وكان أبرع أصحاب أبي الأسود بشهادة أبي عبيدة معمر بن المثنى، فقد روي عنه أنّه قال: «اختلفت النّاس إلى أبي الأسود الدؤليّ يتعلمون منه العربيّة، فكان أبرع أصحابه عنبسة بن معدان المهريّ، واختلفت النّاس إلى عنبسة، فكان أبرع أصحابه ميمون الأقرع» (الأنباري، ١٩٨٥م، ٢٣). وأكبر فضل يشهد له في العربيّة أنّه كان من المؤسسين للنّحو، فقد روي عن أبي عبيدة أيضاً أنّ (أوّل من وضع النّحو أبو الأسود الدؤليّ، ثمّ ميمون الأقرن ثمّ عنبسة الفيل، ثمّ عبد الله بن أبي إسحاق؛ وقال ذلك؛ لأنّ عصرًا واحدًا جمعمهم، وإلّا فقد تقدّم زمان بعضهم على بعض في الأخذ والطلب. وعبد الله بن أبي إسحاق ليس من هذه الطبقة؛ إلّا أنّه أدرك آخر عصرهم) (القفطي، ١٩٨٢م، ٣٣٧/٣). وهو بهذا جزء من السلسلة التي وضعت النّحو ونقلته لمن بعدها فقد كانت السلسلة تبدأ بأبي الأسود على الرّاجح (وأخذ عنه النّحو عَنْبَسَةُ الْفَيْلِ، وَأَخَذَ عَنْ عَنْبَسَةَ مَيْمُونُ الْأَقْرَنُ، ثُمَّ أَخَذَهُ عَنْ مَيْمُونٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ الْحَضْرَمِيُّ، وَأَخَذَهُ عَنْهُ عَيْسَى بْنُ عَمْرٍ، وَأَخَذَهُ عَنْ عَيْسَى الْخَلِيلِ، وَأَخَذَهُ عَنْ الْخَلِيلِ: سَيَبَوَيْه، وَأَخَذَهُ عَنْ سَيَبَوَيْهِ سَعِيدُ بْنُ مَسْعَدَةَ الْأَخْفَشُ) (الذهبي، ٢٠٠٣م، ٧٣٦/٢).

الطبقة الثّالثة:

في هذه الطبقة نحوّيان اثنان: ابن أبي عقرب، وابن أبي إسحاق الحضرميّ. أمّا الأوّل فهو أبو نوفل ابن أبي عقرب البكريّ الكنائيّ، وهو عربيّ فقيه ونحويّ، وكان أبو عمرو بن العلاء يأخذ عنه العربيّة، وأبوه معدود من الصّحابة (الزبيدي، د.ت، ٣١؛ والمزي، ١٩٨٠م، ٩٦/٣٤). وأمّا الثاني فهو الأشهر وهو أعجميّ كما سيأتي.

ابن أبي إسحاق الحضرمي:

هو أبو بحر عبد الله بن أبي إسحاق مولى الحضرميين وإليهم نسب ولأه، والحضرميون موالى بني عبد شمس بن عبد مناف جلفاء، فيكون هو مولى مولى، وكان إماماً في العربية والقراءة، أخذ العربية عن ميمون الأقرع، والقراءة عن يحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم توفي بالبصرة سنة سبع عشرة ومائة (أبو الطيب اللغوي، ١٤٣٠هـ، ٢٥-٢٦؛ والأنباري، ١٩٨٥م، ٢٦-٢٨)، قال ابن سلام: «وسمعت أبي يسأل يونس عن ابن أبي إسحاق وعلمه قال هو والنحو سواء أي هو الغاية» (ابن سلام، د.ت، ١٥/١)، وكان يقال فيه: إنه أعلم أهل البصرة، وأعقلهم، فقد فرغ النحو وقاسه، وتكلم في الهمز وبرع فيه حتى عمل كتاباً مما أملاه، وكان رئيس الناس وواحدهم وعرف عنه أيضاً أنه كان أشد تجريداً للقياس (أبو الطيب اللغوي، ١٤٣٠هـ، ٢٥؛ والسيرافي، ١٩٦٦م، ٢١). حتى قال ابن سلام: «كان أول من بعج النحو ومد القياس والعلل» (ابن سلام، د.ت، ١٤/١)، وهو من أوائل النحاة الذين نسب إليهم وضع النحو، قال معمر بن المثنى: «أول من وضع النحو أبو الأسود ثم ميمون الأقرع ثم عنبسه الفيل ثم عبد الله بن أبي إسحاق» (ابن الجزري، ١٣٥١هـ، ١/٤١).

أثره في العربية:

لقد كان ابن أبي إسحاق صاحب أثر كبير في العربية، ويمكن إجمال هذا الأثر في جوانب عديدة:

- ١ - جانب التأليف، فقد تقدم القول في براعته الفريدة في الهمز، حتى جمع مما أملاه كتاب ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا، فقد ذكر ابن سلام أن بلال بن أبي بردة والي البصرة جمع بين ابن أبي إسحاق وأبي عمرو بن العلاء في مناظرة بالهمز زمان هشام بن عبد الملك فغلب ابن أبي إسحاق يؤمّن (ابن سلام، د.ت، ١٤/١).
 - ٢ - جانب المناظرات، فقد ذكرت مناظرته مع أبي عمرو بن العلاء، وله مناظرة مع الفرزدق، ومع ابن سيرين، ومع يونس بن حبيب (الزجاجي، ١٩٨٣م، ٦٦؛ والحديثي، ٢٠٠١م، ٥٥).
 - ٣ - جانب الآراء الخاصة في النحو، فقد ذكر له سيبويه مجموعة من الآراء في كتابه، منها:
 - تجويزه الاسم الصريح على التحذير بعد «إيا» وفروعه بلا عاطف، قال سيبويه: «واعلم أنه لا يجوز أن تقول: إياك زيداً، كما أنه لا يجوز أن تقول: رأسك الجدار، حتى تقول: من الجدار أو والجدار... ولو قلت: إياك الأسد، تريد من الأسد، لم يجز... إلا أنهم زعموا أن ابن أبي إسحاق أجاز هذا البيت في شعر الفضل بن عبد الرحمن القرشي (البغدادى، ١٩٩٧م، ٦٤/٣):
- إياك إياك المراء فإنه ... إلى الشر دعاء وللشر جالب
- كأنه قال: إياك، ثم أضمر بعد إياك فعلاً آخر، فقال: اتق المراء» (سيبويه، ١٩٨٨م، ٢٧٩/١؛ والحديثي، ٢٠٠١م، ٥٥).
- تجويزه قطع النعت إلى الرفع بعد منعوته منصوب أو مجرور في الترخيم، وتابعه فيه الخليل وذلك في مثل: ((مررت به المسكين))، وخالفهم يونس في بعض أوجهه (سيبويه، ١٩٨٨م، ٧٤-٧٧؛ والحديثي، ٢٠٠١م، ٥٥-٥٦).
 - نصب المضارع في جواب ((ليت))، فكان يقرأ: { يَالَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) } { الأنعام: ٢٧ } بنصب الأفعال الثلاثة (سيبويه، ١٩٨٨م، ٤٤/٣؛ والحديثي، ٢٠٠١م، ٥٦).
 - ذهابه إلى منع صرف الاسم المذكر إذا سمي به مؤنث وهو ثلاثي ساكن الوسط، قال سيبويه: «فإن سميت المؤنث بـ ((عمرو)) أو ((زيد)) لم يجز الصرف، هذا قول ابن أبي إسحاق وأبي عمرو فيما حدّثنا يونس وهو القياس» (سيبويه، ١٩٨٨م، ٢٤٢/٣؛ والحديثي، ٢٠٠١م، ٥٦).
 - ٤ - جانب القياس في اللغة، فقد عرف عنه تفتيق القياس، ومدّه وتجريده، كما سبق ذكره، وله شواهد كثيرة فيما حصل بينه وبين الفرزدق، حيث كان شديد المتابعة له، وخطأه في بعض أشعاره.

الطَّبَقَةُ الرَّابِعَةُ:

في هذه الطَّبَقَةِ سِتَّةُ نَحْوِيَّيْنِ: أَبُو عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ، وَأَبُو سَفْيَانَ بْنِ الْعَلَاءِ، وَالْأَخْفَشُ الْكَبِيرُ، وَعِيسَى بْنُ عَمَرَ، وَمَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَبَكْرُ بْنُ حَبِيبٍ السَّهْمِيُّ. أَمَّا أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ فَهُوَ عَرَبِيٌّ تَمِيمِيٌّ كَانَ عَالِمًا بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْقِرَاءَةِ، وَأَبُو سَفْيَانَ أَخُوهُ (الزبيدي، د.ت، ٣٥). وَأَمَّا الْأَخْفَشُ فَهُوَ أَبُو الْخَطَّابِ شَيْخُ سَيَّبِيهِ، وَلَا تَذْكُرُ الْمَصَادِرُ لَهُ نَسَبًا وَلَا وَلَاءً مِمَّا يُرَجَّحُ كَوْنُهُ عَرَبِيًّا. وَأَمَّا عِيسَى بْنُ عَمَرَ فَهُوَ أَعْجَمِيٌّ وَكَذَلِكَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَهُوَ مَوْلَى الْفَهْرِيِّيْنَ، وَكَانَ ابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ خَالَهِ (الزبيدي، د.ت، ٤٥). وَبَكْرُ بْنُ حَبِيبٍ السَّهْمِيُّ عَرَبِيٌّ أَيْضًا.

عِيسَى بْنُ عُمَرَ الثَّقَفِيُّ:

(كنيته أبو سليمان - ويقال: أبو عمر - وكان ثقة عالمًا بالعربية والنحو والقراءة، وقراءته مشهورة) (الأنباري، ١٩٨٥ م، ٢٨). وهو من سلف كانوا مواليا لخالد بن الوليد المخزومي (رضي الله عنه)، لكنه نزل في ثقيف، فنُسب إليهم، كان يحفظ القرآن، والكثير من كلام العرب، وخاصة الغريب، حتى صار جاريًا على لسانه، وبديًا في كلامه، فاشتهر بالغريب والتعقُّر في الكلام، وله في ذلك قصّة مشهورة حين ضرب من أجل ودعية أبي أن يردها، وهو أبرز تلاميذ عبد الله بن أبي إسحاق، وأبرز شيوخ سيبويه (ابن سلام، د.ت، ١٥/١؛ أبو الطيب اللغوي، ١٤٣٠ هـ، ٣٣؛ والسيرافي، ١٩٦٦ م، ٢٦). وكان شديد الاعتداد بنفسه، حتى بلغ به الأمر أن يتباهى بنفسه ويتعالى على العرب الأقحاح، (قال الأصمعي: قَالَ عِيسَى بْنُ عُمَرَ لِأَبِي عَمْرٍو: أَنَا أَفْصَحُ مِنْ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ، فَقَالَ لَهُ تَعَدَّيْتُ، كَيْفَ تَنْشُدُ هَذَا الْبَيْتَ:

قَدْ كُنْتُ يُخَبِّئُ الْوَجْهَ تَسْتَرًا ... فَالْيَوْمَ حِينَ بَدَأْتُ لِلنُّظَارِ

أو (بدین للنظار)؟ فقال: (بدأن) فقال: أخطأت. يُقَالُ: بَدَأَ يَبْدُو إِذَا ظَهَرَ، وَبَدَأَ يَبْدَأُ إِذَا شَرَعَ.

وإنما قصد أبو عمرو تغليظه لأنه تقعر عليه، والصواب (بدون) بالواو) (الذهبي، ٢٠٠٣ م، ١٧٨/٤) وقد ذكر الذهبي شواهد كثيرة على تقعره واستعماله الغريب. تُوفِّيَ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَةٍ (أبو الطيب اللغوي، ١٤٣٠ هـ، ١٢٨).

جَهْدُهُ وَآثَرُهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ:

يُعَدُّ عِيسَى بْنُ عَمَرَ مِنْ أَهَمِّ النَحْوِيِّينَ الْأَوَّلِينَ فِي الْبَصَرَةِ، وَهُوَ مِنَ الْمَوْسُسِينَ لِلنَّحْوِ، وَالرَّاسِمِينَ لِحُدُودِهِ، وَالْمُنْظَرِينَ لِقَوَاعِدِهِ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَحْدَدَ جَهْدَهُ وَآثَرَهُ فِي جَوَانِبَ عَدِيدَةٍ، أَهْمُهَا:

١ - جانبُ التَّعْقِيدِ وَالتَّنْظِيرِ، فَقَدْ قِيلَ عَنْهُ: إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ هَدَّبَ النَّحْوَ وَرَتَّبَهُ (الزركلي، ٢٠٠٢ م، ١٠٦/٥)، وَكَانَتْ لَهُ مَرَاجِعَاتٌ لِأَبِي عَمْرٍو ابْنِ الْعَلَاءِ، أَصَابَ فِي بَعْضِهَا وَأَخْطَأَ فِي الْبَعْضِ الْآخَرِ، مِنْهَا أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي عَمْرٍو مَرَّةً: « يَا أَبَا عَمْرٍو، مَا شَيْءٌ بَلَّغَنِي أَنَّكَ تَجِيزُهُ؟ قَالَ: وَمَا هُوَ، قَالَ: بَلَّغَنِي أَنَّكَ تَجِيزُ لَيْسَ الطَّيْبُ إِلَّا الْمَسْكُ بِالرَّفْعِ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: نِمْتَ يَا أَبَا عُمَرَ، وَأَدْلَجَ النَّاسُ! لَيْسَ فِي الْأَرْضِ حَاجِزِي إِلَّا وَهُوَ يَنْصَبُ وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ تَمِيمِي إِلَّا وَهُوَ يَرْفَعُ » (الزبيدي، د.ت، ٤٣). كَمَا ذَكَرَ عَنْهُ كَانَ يَطْعُنُ عَلَى الْعَرَبِ وَيَخْطِئُ الْمَشَاهِيرَ مِنْهُمْ، كَالنَّابِغَةِ الدُّبَايَ وَغَيْرِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ، وَأَنَّهُ فَاقَ أَبَا الْأَسْوَدِ الدُّؤْلِيَّ الَّذِي لَمْ يَضَعْ فِي النَّحْوِ إِلَّا بَابَ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ فَقَطْ، بَيْنَمَا وَضَعَ عِيسَى بْنُ عَمَرَ كِتَابًا عَلَى الْأَكْثَرِ وَبَوَّبَهُ وَهَدَّبَهُ وَسَمَّى مَا شَدَّ عَنْ الْأَكْثَرِ لُغَاتٍ (ابن خلكان، د.ت، ٤٨٦/٣).

٢ - جانبُ التَّأْلِيفِ، فَقَدْ ذَكَرَتْ الْمَصَادِرُ أَنَّ لَهُ نَيْفًا وَسَبْعِينَ مُؤَلَّفًا، وَأَشْهُرُ هَذِهِ الْمَوْلُفَاتِ كِتَابَانِ هُمَا: الْإِكْمَالُ وَالْجَامِعُ، وَلَمْ يَرِ هَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ أَحَدٌ سِوَى سَيَّبِيهِ فِيمَا قِيلَ عَنْهُ، وَقِيلَ نَقْلًا عَنِ الْمُبَرِّدِ أَنَّهُ قَرَأَ أَوْرَاقًا مِنْ أَحَدِ كِتَابَيْهِ (ياقوت الحموي، ١٩٩٣ م، ٢١٤١/٥)، إِلَّا أَنَّ اسْمَهُمَا شَائِعٌ وَمَتَدَاوُلٌ بَيْنَ النَّحْوِيِّينَ، حَتَّى قَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيَّ فِيهِمَا (القفطي، ١٩٨٢ م، ٣٤٧/٢):

ذَهَبَ النَّحْوُ جَمِيعًا كُلُّهُ ... غَيْرَ مَا أَحْدَثَ عِيسَى بْنُ عَمَرَ

ذَاكَ إِكْمَالٌ وَهَذَا جَامِعٌ ... فَهُمَا لِلنَّاسِ شَمْسٌ وَقَمَرٌ.

وَأَتَّهَمَ سَيَّبِيهِ بِأَنَّهُ أَخَذَ كِتَابَهُ مِنَ الْجَامِعِ، وَأَنَّ الْإِكْمَالَ فِي بِلَادِ فَارَسَ، فَقَدْ (نُقِلَ أَنَّ سَيَّبِيهِ لَمَّا فَارَقَ عِيسَى بْنَ عُمَرَ وَلاَزَمَ الْخَلِيلَ سَأَلَهُ الْخَلِيلُ عَنْ مَصْنُفَاتِ عِيسَى بْنِ عُمَرَ، فَقَالَ لَهُ سَيَّبِيهِ: قَدْ صَنَّفْتُ نَيْفًا وَسَبْعِينَ مَصْنُفًا فِي النَّحْوِ، وَأَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْيَسَارِ جَمَعَهَا وَأَتَتْ عَلَيْهَا عِنْدَهُ آفَةٌ فَذَهَبَتْ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا فِي الْوُجُودِ سِوَى تَصْنِيفَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا اسْمُهُ الْكَامِلُ وَهُوَ بِأَرْضِ فَارَسَ عِنْدَ فُلَانٍ، وَالْجَامِعُ، وَهُوَ هَذَا الْكِتَابُ

الذي أشتغل فيه عليك، وأسألك عن غوامضه (القفطي، ١٩٨٢م، ٣٤٧/٢؛ والسيوطي، د.ت، ٢٣٨/٥). ولا يخفى ما في هذا الخبر من تناقض يدفع إلى الشك فيه، فلماذا لم يقرأ سيبويه الجامع على ابن عمر وهو شيخه؟ وكيف سلم هذان الكتابان فقط من الآفة؟ ولماذا لم يصل الكتاب الآخر إلى البصرة؟ وكيف انتقل إلى بلاد فارس دون أن يراه أحد من علماء البصرة، أو من تلاميذ ابن عمر سوى سيبويه؟ لهذا وغيره تتاب الباحث شكوك في هذه الجزئية من الرواية، إلا أن خبر الكتابين ووجودهما شائع بين أهل العلم بما لا يترك مجالاً للشك فيه.

٣ - جانب القراءات، فقد عُرف عنه اشتغاله بالقراءات القرآنية، قال ابن الجزري عنه: «إنه كان له اختيار في القراءة على مذاهب العربية يفارق قراءة العامة ويستنكره الناس وكان الغالب عليه حب النصب إذا وجد لذلك سبيلاً منه {حمالة الخطب} [المسد: ٤] «الزاني» [النور: ٢] «والسارق والسارقة» [المائدة: ٣٨] «هـن أظهركم» [هود: ٧٨] (ابن الجزري، ١٣٥١هـ، ٦١٣/١).

٤ - جانب المناظرات، وقد مر معنا جزء من مناظرته لأبي عمرو بن العلاء.

الطبقة الخامسة:

في هذه الطبقة خمسة نحويين: الخليل بن أحمد، وحماد بن سلمة، ويونس بن حبيب، ويعقوب بن إسحاق الحضرمي، وأبو عاصم النبيل. أما الخليل فهو عربي أزدي وهو أشهرهم، وأما حماد فهو مولى بني تميم (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ١١٩٨/٣)، ويونس مولى أيضاً كما سيأتي، وأما يعقوب فهو مقرئ البصرة، وحفيد عبد الله بن أبي إسحاق مولى الحضرميين (الذهبي، ٢٠٠٣م، ٢٥٨/٣). وأما أبو عاصم النبيل فهو الصحاك بن مخلد بن مسلم عربي شيباني (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ١٤٥٢/٤).

يونس بن حبيب:

هو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب النحوي الضبي وقيل: الليثي ولاء، كان له شغف باللغة ومفرداتها، ويحفظ الكثير من شعر العرب ولا سيما شعر روبة، وكان يتعصب له، ولكن غلب عليه النحو فصار إماماً من أئمة النحويين، أخذ الأدب عن أبي عمرو بن العلاء وحماد بن سلمة وسمع من العرب، وعنه أخذ الكسائي، وسيبويه، وروى عنه كثيراً في كتابه، والقراء أخذ عنه أيضاً، وغيرهم. وله قياس في النحو ومذاهب ينقرد بها، وقيل: إنه لم يترج، ولا تسمى، وله مؤلفات في القرآن واللغات. وكانت له حلقه بالبصرة يرتادها أهل الأدب والفصحاء من العرب، وأهل البادية وأهل اللغة والنحو (القفطي، ١٩٨٢م، ٧٤/٤؛ والتنوخي، ١٩٩٢م، ١٢٠/١؛ والأنباري، ١٩٨٥م، ٤٧؛ وياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ٢٨٥٠/٦). كان مُعجباً بشيخه أبي عمرو بن العلاء، ومُكثرًا من مدحه، وكان لأبي عمرو تأثير واضح عليه، فقد قال فيه: «لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله في كل شيء كان ينبغي أن يؤخذ بقول أبي عمرو بن العلاء» (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ١٣٢١/٣). كان لا يخل بعلمه على أحد، قال أبو زيد: «ما رأيت أبذل للنحو من يونس» (التنوخي، ١٩٩٢م، ١٢١). توفي سنة اثنتين وثمانين ومائة، بعد عمر ناهز مائة عام (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ٢٨٥٠/٦).

جهوده وأثره:

يعد يونس بن حبيب من كبار النحويين في البصرة، بل من أئمتهم وهو من العلماء القلائل الذين كانوا مصدراً مهماً لأول كتاب مُكتمل في النحو، ويمكننا أن نحدد جهوده وأثره في جوانب عديدة، أهمها:

١ - جانب التقعيد والتنظير، فلا يخفى أن يونس له قياس في النحو ومذاهب ينقرد بها عن غيره من النحويين، وقد أفاد منه سيبويه أيما إفادة في كتابه، وتردد ذكره في الكتاب كثيراً، وكان هذا الجانب عنده مبنياً على السماع غالباً، ولا سيما شعر روبة الذي كان يعتد به كثيراً ويُعَلِّبه في الفصاحة على كثير من العرب، فكان يعتمد في جل أحكامه عليه، ومن ذلك:

أنه كان له رأي في تقديم المستثنى على المستثنى منه، فلم ير فيه وجوب النصب، بل أجاز الإتيان ببناءً على السماع؛ لأنه سمع بعض من يثق بعربيته يقول: ما لي إلا أبوك أحد (سيبويه، ١٩٨٨م، ٣٣٧/٢).

إثبات الياء في آخر المنادى المضاف إلى ياء المتكلم، كقوله تعالى: {يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ} [الزمر: ١٦] جاء في كتاب سيبويه: «وبعض العرب يقول: يا رب اغفر لي، ويا قوم لا تفعلوا. وثبت الياء فيما زعم يونس في الأسماء» (سيبويه، ١٩٨٨م، ٢٠٩/٢).

كان له أسلوبٌ مختلفٌ في تجويز بعض المسائل النحوية، فقد يُورد المسألة ثم يُثني بخلافها من قول رُوبة، كما جاء في الكتاب في بناء المُنادى المُفرد قوله: « فأما المفرد إذا كان مُنادى فكل العرب ترفعُه بغير تنوين، وذلك لأنه كثر في كلامهم، فحذفوه... وتقول: يا زيد زيد الطويل، وهو قول أبي عمرو. وزعم يونس أن رُوبة كان يقول يا زيد زيدًا الطويل. فأما قول أبي عمرو فعلى قولك: يا زيد الطويل، وتفسيره كتفسيره. وقال رُوبة (رُوبة بن العجاج، د.ت، ١٧٤):

إني وأسطارٍ سَطَرَنَ سَطْرًا ... لقائل يا نصرَ نصرًا نصرًا» (سيبويه، ١٩٨٨ م، ١٨٥/٢).

أنه على الرغم من مخالفته للخليل ولابي عمرو بن العلاء وأقيستهم فيما سبق، إلا أنه يعود أحياناً ليخالفهم فيما اعتمدوا عليه من سماعٍ واطِّرادٍ في كلام العرب، إلى ما استقرَّ عنده من قياسٍ وفهمٍ لكلامهم في الأسماء والأدوات، فراه يُجيزُ مجيء (الذي) حرفاً مصدرياً يقوم مقام (أن) و (ما) المصدريتين معتمداً على فهمه لقوله تعالى: { ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [الشورى: ٢٣]. وإنكاره كون (إمّا) الثانية عاطفةً في مثل: جاء إمّا زيد وإمّا عمرو، ورفضه أن تكون (لكن) عاطفةً في مثل: ما قام زيد ولكن عمرو، وحجته في ذلك أنه في العربية لا يتباشر حرفان للمعنى نفسه كالعطف والاستفهام، وهذا الكلام مبني على استقرارٍ واسعٍ لاستعمال الحروف في العربية (ابن هشام، د.ت، ٣٨١-٣٨٢؛ وسيبويه، ١٩٨٨ م، ٢٢٧/٢، ٤٠٠، ٣٥١/١، ٣١٨/٣، ٣٣٩، ١٨٤/٤).

استعماله التعليل فضلاً عما ذكرنا من القياس، فقد علل قول العرب: «مَنْ أَنْتَ زَيْدًا» أنه بمعنى: مَنْ أَنْتَ تَذْكُرُ زَيْدًا. لكنه كثر في كلامهم فاستغنوا عنه (سيبويه، ١٩٨٨ م، ٢٩٢/٢، ٢٩١/٣؛ والحديث، ٢٠٠١ م، ٦٥).

استعماله التأويل في ردّ ما خرج عن المُطَرِّد من كلام العرب، من ذلك مجيء ضمير الرّفْع المنفصل بعد (لولا) كما هو شائع في كلام العرب والقرآن الكريم، وامتناع غيره، مثل قول يزيد بن الحكم (سيبويه، ١٩٨٨ م، ٣٧٤/٢؛ والبغداد، ١٩٩٧ م، ٣٣٧، وغيرهما):

وكم موطنٍ لولاي طِحت كما هوى ... بأجرامه من قُلة النّيق مُنهوي

حيث جاء بعد (لولا) ضمير جرّ، فانبرى يونس لتأويله بأن (لولا) هنا حرف جرّ، وأن الضمير في محل جرّ بحرف الجرّ (سيبويه، ١٩٨٨ م، ٣٧٤/٢).

٢ - كان يونس مستوعباً ضخماً لمفردات العربية، فقد عُرف عنه سرعة في الحفظ حتى شُبه بالكُوْز الضيّق الرأس، (قال أبو الخطّاب: مثل يونس كمثل كُوْز ضيّق الرأس، لا يدخله شيء إلا بعُسْر؛ فإذا دخله لم يخرج منه -يعني لا ينسى) (الزبيدي، د.ت، ٥١-٥٢). وكان عالماً بالشعر ناقدًا له عارفاً بجيده من رديئه، عارفاً بطبقات الشعراء، مرجعاً في ذلك كله (ياقوت الحموي، ١٩٩٣ م، ٢٨٥١/٦).

٣ - أمّا في جانب التأليف، فقد كان حاضراً مُبرِّزاً، وله مُصنّفاتٌ معروفة عند أهل العلم في زمانه، مثل: معاني القرآن، وكتاب اللغات، وكتاب النوادر الكبير، وكتاب النوادر الصّغير، وكتاب الأمثال (ياقوت الحموي، ١٩٩٣ م، ٢٨٥٢/٦).

٤ - وفي جانب المناظرات، كانت له مجالسٌ عديدة جمعتها بعيسى بن عمّار، وأبي عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، ومن أشدها تلك التي ذكر فيها رُوبة بسوءٍ فانتصر له، فقد ذكر الزجاجي أن يونس كان (في مجلس أبي عمرو بن العلاء، فاتاه شُبَيْل بن عَزْزَة الضبيّ... فأكرمه ورفعه، ثم قال له: من أين أقبلت؟ قال: من عند رُوبة، ولقد سألتُه عن اسمه فما عرفه. قال يونس: فما ملكْتُ نفسي غضباً حين ذكر رُوبة، فوثبتُ فجلستُ بين يديه وقلت: أَلرُوبة تقول هذا؟! لهو والله أفصحُ من معدٍ، أفتعرفُ أنت الرُوبة والرُوبة والرُوبة والرُوبة؟ فسكت فما أجاب بحرف، فقال لي أبو عمرو: ماذا أردت إلى رجلٍ جاءني فأكرمته تأيسّة، تستقبله بما يكره (الزجاجي، ١٩٨٣ م، ٢٣٣ بتصرف).

٥ - وفي جانب التفسير كان له نصيبٌ أيضاً، فقد جاء في نور القبس أن أبا حنيفة قال ليونس: «يا أبا عبد الرحمن، علمت أن الرُمان ليس من الفاكهة؟ قال: لم؟ قال: لقول الله عز وجل: { فِيهِمَا فَاكُهُ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ } [الرحمن: ٦٨]. فقال يونس: فجبريل وميكائيل إذا ليسا من الملائكة لقوله تعالى: { مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ } [البقرة: ٩٨]. قال: فكيف ذاك؟ قال: إنَّ الله عز وجل إذا خصَّ الشيء بالفضل أدخله في الجملة ثم أبانه بالاستثناء وأقرّ ذكره» (اليغموري، د.ت، ١٧). وسئل أيضاً عن قوله

تعالى: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً} [يونس: ٩٢] ولم ينجُ فرعونُ بل أغرقه الله، فقال: «يعني نُلقيكَ بِنَجْوَةِ الْبَحْرِ، وهي شاطئه وكذلك نَجْوَةُ الْوَادِي شَفِيرُ الْوَادِي» (اليغموري، د.ت، ١٧) مُستشهداً بأبياتٍ من الشعر. وهنا تبدو براعته اللغوية وحسنُ تصرُّفه فيها وحسنُ استحضاره للمفردات والشعر.

٦ - يُعدُّ يونسُ من الروافد الهامة للمدرستين النحويَّتين الأوليين: البصرة والكوفة، فهو شيخُ لأقطابهما، مثل: سيبويه، والكسائي، والقرءاء، وغيرهم ممن كانوا يحضرون حلقاته بالبصرة وينهلون من فيض علمه وأدبه.

الطبقة السادسة:

في هذه الطبقة عشرة نحويين: النَّظْرُ بْنُ شَمِيلٍ، وأبو محمدٍ الزبيدي، وسيبويه، وأبو الحسنٍ سعيدُ بنُ مسعدةٍ الأخفش، وأبو عمرٍ الجرمي، وعليُّ بنُ نصرٍ الجهمي، ومؤرِّجُ بنُ عمرو، ومحمدُ بنُ أبي محمدٍ الزبيدي، وأبو جعفرٍ أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ أبي محمدٍ الزبيدي، وأبو العباس الفضلُ بنُ محمدٍ بنِ أبي محمدٍ الزبيدي. أمَّا النَّظْرُ فهو عربيٌّ تميميٌّ معروف، وأمَّا أبو محمدٍ الزبيدي فهو (مولى بني عدي بن عبد مناة بن تميم. وكان مُعلِّماً فباله دار أبي عمرو بن العلاء دهراً. وقيل له: «الزبيدي» لأنه أدب أولاد يزيد بن منصور الحميري) (الزبيدي، د.ت، ٦١). وأمَّا سيبويه فهو أشهرُ الأعاجم كما سيأتي، وأمَّا أبو الحسنٍ سعيدُ بنُ مسعدةٍ الأخفش فهو مولى بني مُجاشع (الزبيدي، د.ت، ٦٧)، وأبو عمرٍ الجرمي مولى البجليين، وسكن في جرم فُسب إليهم (الزبيدي، د.ت، ٧٤). وعليُّ بنُ نصرٍ الجهمي يذكرون نسبهُ ممَّا يدلُّ على أنَّه عربيٌّ. ومؤرِّجُ بنُ عمرو السدوسي، وهي قبيلةٌ عربيَّةٌ معروفة. والثلاثة الباقون أبناءُ أبي مُحمَّدٍ المتقدم الذكر.

سَيْبَوِيَّة:

هو أبو بشرٍ عمرو بنُ عثمان بن قنبر مولى بني الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن خالد بن مالك بن أد، عُرفَ بين النحاة بهذا اللقب الذي هو كلمة فارسيَّة في الأصل معناها: رائحةُ الثُّفاح (السيرافي، ١٩٦٦ م، ٣٨؛ والأنباري، ١٩٨٥ م، ٥٤)، وُلِدَ في زمن الدولة العبَّاسيَّة ويُرجَّحُ أنَّ ولادته كانت في حدود سنة ١٣٥ هـ، جاء من قرية البيضاء بشيراز مع أهله واستقرَّ في البصرة (الزبيدي، د.ت، ٦٦) التي كانت مقرّاً للدراسات الدينيَّة ومركزاً مهماً من مراكز الثقافة الإسلاميَّة في ذلك الوقت وقد كان صديقاً حينها، فبدأ بأخذ العلوم الشرعيَّة حاله كحال أي طالب علم في ذلك الزمن، فتناول بالدراسة علم القراءات ثمَّ الفقه والحديث على يد حماد بن سلمة، وهو محدث مشهور في البصرة، وكانت له عنايةٌ بالعربيَّة فصاحةً ونحوًا، وكان يقول: «مَنْ لَحَنَ فِي حَدِيثِي فَقَدْ كَذَبَ عَلَيَّ» (السيرافي، ١٩٦٦ م، ٣٥)، وبسببه بدأت رحلته سيبويه في طلب العربيَّة والنحو، فقد قال حمادُ يوماً: «قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلَّم: ليس من أصحابي إلَّا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء، فقال سيبويه: «ليس أبو الدرداء». فقال حماد: لحنت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت، وإنما (ليس) هاهنا استثناء». فقال: سأطلبُ علماً لا تُلحني فيه. فلزم الخليل فبرَّع» (الزبيدي، د.ت، ٦٦). فبدأ بطلب النحو على يد عيسى بن عمر الثَّقَفِيٍّ أولاً وهو لا يزالُ صبيّاً، فلمَّا مات لزم حلقة الخليل واختصَّ به. ثمَّ اندفع في سماع اللغة وروايتها إلى أشهر حلقات اللغويين أمثال: أبي عمرو بن العلاء، والأخفش الكبير، ويونس بن حبيب، مع طول مُلازمةٍ لحلقة الخليل (الأنباري، ١٩٨٥ م، ٥٤-٥٥) وكانت ملازمته الخليل أنفعَ له من كلِّ مَنْ سواه، فقد أخذ عنه الكثير من الآراء النحويَّة التي كان يدوِّنها في مجالسه مُستفيداً من المناقشات التي كانت تزخرُ بها حلقة الخليل، ومن العلماء الآخرين الذين كانوا يرتادونها، فدَوَّنَ النحو واللغة والشعرَ وشارك فيها أيضاً، وطرح الأسئلة التي كانت محوراً مهماً للمناقشات الدائرة فيها، ثمَّ اشتدَّ ساعده فأصبح إمام النحويين في زمانه، وكانت له مُناظراتٌ عديدة مع النحويين الكوفيَّين في مجالس الخليفة العبَّاسي هارون الرشيد وكان آخرها مع الكسائي الذي كان مُقرباً من الخليفة ومؤدباً لأبنائه، فناصرَت العربُ الكسائيَّ تقرباً إليه وإلى الخليفة في المسألة الزنُوريَّة الشهيرة، فاعتَمَ لذلك غمّاً شديداً، فمات وهو عائدٌ إلى بلاده سنة ١٨٠ هـ (الزبيدي، د.ت، ٦٩-٧٢).

جُهودُهُ وأثرُهُ:

يكادُ سيبويه يكونُ صاحبَ أهمِّ أثرٍ في العربيَّة من غيرِ أهلِها، فقد استطاعَ الرَّجُلُ على قِصَرِ حياتِهِ العلميَّة أن يأتي بما لم يسبقهُ إليه أحدٌ من أقرانه ومعاصريه، فقد وضعَ أوَّلَ كتابٍ في النَّحو العربيِّ على طريقةٍ فريدةٍ أذهلت علماء زمانه لشِدَّةِ إتقانها وإحكامها وشُمولها، فلا تكادُ تجدُ كتابًا تضمَّنَ مُجملَ قواعدِ النَّحو منذُ ذلك الحينِ إلى يومنا هذا غيرَ كتابِ سيبويه، كما تضمَّنَ الكثيرُ ممَّا نُعنى به مستويات اللِّغة المختلفة في الصَّرف، والبلاغة، والمُعجمات، قالَ صاعدُ بنُ أحمدَ الجيانيِّ من أهلِ الأندلس: «لا أعرفُ كتابًا ألَّفَ في علمٍ من العلوم قديمها وحديثها، فاشتملَ على جميعِ ذلك العلمِ وأحاطَ بأجزاء ذلك الفنِّ غيرَ ثلاثةٍ كُتِبَ: أحدها: المجسطيُّ لبطليموس في علمِ هيئةِ الأفلاك. والثاني: كتابُ أرسطاطاليس في علمِ المنطق. والثالث: كتابُ سيبويه البصريِّ النَّحويِّ. فإنَّ كلَّ واحدٍ من هذه لم يَشُدَّ عنه من أصولٍ فُتِّه شيءٌ إلَّا ما لا خطرَ له» (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ٢١٢٤/٥). وقد احتفى به العلماء أيَّما احتفاءً وأثنوا عليه أيَّما ثناءً قالَ الجاحظُ: «لم يكتب النَّاسُ في النَّحو كتابًا مثلهُ وجميعُ ما كُتِبَ النَّاسُ عيالٌ عليه» (ابن خلكان، د.ت، ٤٦٣/٣). وكانوا فضلًا عن ذلك يتهيبونه ويستصعبون مسالكه لما فيه من مادَّةٍ تستعصي على أفهام الدِّين لم ترسخ أقدامهم في النَّحو، ولم تشتدَّ سواعدهم فيه، فكان المُبرِّدُ إذا سأله أحدًا أن يقرأه عليه يقولُ له: هل ركبَت البحرَ؟ (السيرافي، ١٩٦٦م، ٤٠) تعظيمًا لأمره، وتهويلًا لما فيه من المصاعب والمشاق. وكان أبو عثمان المازنيُّ يقولُ: «مَن أرادَ أن يعملَ كتابًا كبيرًا في النَّحو بعدَ كتابِ سيبويه فليستحي ممَّا أقدمَ عليه» (السيرافي، ١٩٦٦م، ٤٠) وللكتابِ فوائدٌ هي جزءٌ من ثمارِ هذا الرَّجُلِ الذي ملأَ الدُّنيا وشغلَ النَّاسَ، وهي جزءٌ من أثره العظيم في هذه اللِّغة ويمكنُ إجمالُها فيما يأتي:

١ - يُعدُّ كتابُ سيبويه أوَّلَ كتابٍ في النَّحو يصلُ إلينا مُكتملًا ومُرتبًا وشاملاً لأغلبِ قواعدِ النَّحو، ومستوعبًا لأكثرِ موضوعاته، وهو بهذا يحققُ السَّبقَ والإتقانَ في آنٍ واحدٍ.

٢ - يُعدُّ سيبويه بصنيعةٍ لهذا الكتابِ من المؤسسين لعلمِ النَّحو على الرِّغم من كونه واحدًا من علماء الطَّبقة الرَّابعة من النَّحويِّين البصريِّين؛ لما حظي به هذا الكتابُ من القبولِ والاهتمام من علماء عصره.

٣ - مع كونِ هذا الكتابِ أساسًا مهمًّا للنَّحو العربيِّ بوجهٍ عامٍّ إلَّا أنَّه يُعدُّ أساسًا ومرجعًا أيضًا للمدرسة البصريَّة ومُنظرًا لها، ومُبيِّنًا لأهمِّ آراءِ هذه المدرسة التي تحظى بانتشارٍ واسعٍ على ساحةِ الدِّراسات النَّحويَّة واللِّغويَّة.

٤ - يُعدُّ الكتابُ فاتحةً لكثيرٍ من الدِّراسات النَّحويَّة واللِّغويَّة في القرنِ الثاني للهجرة وهو العصرُ الذهبيُّ لهذه الدِّراسات، فقامت عليه دراساتٌ كثيرةٌ في المشرق والمغرب، فقد ذُكرَ له في الأندلس والمغرب قُرابةً أربعين دراسةً، وفي المشرق قُرابةً تسعٍ وعشرين دراسةً: خمسٍ وعشرين في العراق، وأربعٍ في مصر (النجدي، ١٩٧٩م، ١٩٢)، ولا يزالُ الباحثون إلى يومنا هذا يعكفون عليه ويدرسونه وينهلون من معينه الذي لا ينضب.

الأخفشُ سعيدُ بنُ مسعدة:

هو سعيدُ بنُ مسعدة المُجاشعي، مولى من موالي بني مُجاشع، وهو من أهلِ بَلخ في الأصل، كُنيتُه أبو الحسن، ويُعرفُ بالأخفش الصَّغير في زمانه، تميَّزَ له عن الأخفش الكبير الذي هو عبد الحميد بن عبد المجيد، وكُنيتُه أبو الخطَّاب (الزبيدي، د.ت، ٧٢-٧٣؛ والقفطي، ١٩٨٢م، ٣٩/٢). درسَ على الخليل، وأخذَ منه، ثمَّ تتلمذَ على سيبويه وهو أكبرُ من سيبويه سنًّا (القفطي، ١٩٨٢م، ٣٦/٢)، وكان سيبويه حينَ يضعُ شيئًا من كتابه يسأله عنه؛ ظنًّا منه أنَّ الأخفشَ أعلمُ منه وهو أعلمُ من الأخفشِ باعترافِ الأخفشِ نفسه، فقد قالَ «كان سيبويه إذا وضعَ شيئًا من كتابه، عرضهُ عليَّ، وهو يرى أنَّي أعلمُ منه، وكان أعلمُ مِنِّي، وأنا اليومُ أعلمُ منه» (الزبيدي، د.ت، ٦٧). كان هو الوحيدُ الذي درسَ الكتابَ على يدِ سيبويه وأخذَهُ منه، وهو الطريقُ الوحيدُ لروايةِ الكتابِ ووصولِهِ إلينا، ثمَّ أخذَهُ عنه الكسائيُّ ووهبهُ سبعينَ دينارًا، وكان مُعلِّمًا لأولاده، وممَّن قرأه عليه أيضًا أبو عمر الجُرميُّ وأبو عثمان المازنيُّ (القفطي، ١٩٨٢م، ٤٠/٢). وكان قدرًا في عقيدته، وظهر أثرُ اعتقاده في بعضِ مؤلفاته، قال أبو حاتم عنه: «وكان الأخفشُ رجلًا سوءٍ، قدرًا شمرًا. وهم صنفٌ من القدرية، نُسبوا

إلى [أبي] شمر، ولم يكن يغلو فيه... كتابه في المعاني صويلح؛ إلا أن فيه مذاهب سوء في القدر» (القفطي، ١٩٨٢م، ٣٨/٢). وكان الأخفش قد اشتاط غضباً لما لقيه سيبويه على يد الكوفيين فعزم على الانتقام له، فترود لهذه المهمة وذهب إلى بغداد كما حدث عن نفسه فقال: «وردت بغداد، فوافيت مسجد الكسائي، فصليت خلفه الغداة، فلما انفلت من صلاته، وقعدت في محرابه -وبين يديه الفراء والأحمر وهشام وابن سعدان- سلمت عليه، وسألته عن مائة مسألة، فأجاب بجوابات خاطئة في جميعها فأراد أصحابه الوثوب عليّ، فمنعهم من ذلك، ولم يقطعني ما رأيته عليهم مما كنت فيه، فلما فرغت من المسائل قال لي الكسائي: بالله أنت أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش؟ قلت: نعم، فقام إليّ، وعانقني وأجلسني إلى جانبه، ثم قال لي: أولادي أحب أن يتأدبوا بك، ويخرجوا على يديك، وتكون معي غير مفارق لي. وسألني ذلك فأجبته، إليه» (القفطي، ١٩٨٢م، ٣٧/٢). توفي سنة ٢١٥ هـ (الزبيدي، د.ت، ٧٤).

جُهوْدُه وأثرُه:

يُعدُّ الأخفش أهم نحويّ ذي أثر في الطبقة الخامسة من علماء النحو في البصرة، ومن أهم رجال المدرسة البصريّة بعد سيبويه، ويمكن أن نُجمل أثره في النقاط الآتية:

- ١ - يُعدُّ الطريق الوحيد لكتاب سيبويه، فقد أخذه عن سيبويه مباشرة وقرأه عليه فضلاً عن عرض سيبويه الكتاب عليه حين تأليفه.
- ٢ - يُعدُّ حلقة وصل بين البصريين والكوفيين؛ لحرص النحويين بصريّهم وكوفيّهم على دراسة الكتاب واقتناؤه، فقد أخذه عنه أبو عمر الجرمي وأبو عثمان المازني من البصريين، ورأس الكوفيين في زمانه الكسائي، ولا أحد تصدّى لتدريسه سواه، وبهذا أفاد الكوفيون من علم سيبويه ومن كتابه ومن المدرسة البصريّة تبعاً لذلك.
- ٣ - على مستوى التأليف كانت له مؤلفات عديدة لعل أهمها كتاب معاني القرآن الذي كتبه استجابة لطلب الكسائي كما زعم، وجعله الكسائي إماماً له عندما ألف كتابه معاني القرآن ثم عمل الفراء كتابه في المعاني اعتماداً على كتابيهما (القفطي، ١٩٨٢م، ٣٧/٢). وقد اتهم الأخفش أيضاً بأنه أخذ كتاب أبي عبيدة في المعاني فزاد عليه شيئاً وأسقط منه شيئاً وأبدل منه شيئاً ثم نسبته لنفسه (القفطي، ١٩٨٢م، ٣٧/٢). وله كتابان آخران لم يصل إلينا هما المسائل الكبير والمسائل الصغير، قال الأخفش: «لما دخلت بغداد أتاني هشام الضرير، فسألني عن مسائل عملها، وفروع فرعها، فلما رأيت أن اعتماداً غيره من الكوفيين على المسائل عملت كتاب المسائل الكبير، فلم يعرفوا أكثر ما أوردته فيه» (القفطي، ١٩٨٢م، ٣٨/٢). وقد اتهم في هذا الكتاب أيضاً فقد قال أبو حاتم السجستاني: «إنه (كان في المدينة على الملقب بالجمال وضع كتاباً في النحو لم يكن شيئاً فذهب، وأظن الأخفش سعيد بن مسعدة وضع كتابه في النحو من كتاب الجمال) (الزبيدي، د.ت، ٧٤). ورأيت له كتاباً يذكره ابن مالك في التذييل على شرح التسهيل سمّاه النسخة الوسطى (أبو حيان الأندلسي، د.ت، ٧١/٢)، ولم أقف على هذا الكتاب، وهو من باب أولى ألا يصل إلينا.
- ٤ - كان له أثر لا يمحى في إملاء غريب الشعر، قال أبو العباس أحمد بن يحيى: «أول من أملى غريب كل بيت من الشعر تحته الأخفش، وكان ببغداد، وكان الطوسي مُستملية» (أبو حيان الأندلسي، د.ت، ٧١/٢).
- ٥ - ومن أهم الآثار التي تُحسب للأخفش هي الآراء النحويّة التي أثرى بها المدرسة البصريّة متأثراً بالمدرسة الكوفيّة، فقد تأثر بها كما أثر فيها، مُخالفاً بها إجماع البصريين، ثم انتقلت تلك الآراء إلى المدرسة البصريّة، ومن أهم تلك الآراء:
 - جواز رفع الوصف للاسم الظاهر على أنه فاعل سدّ مسدّ الخبر، دون أن يعتمد على نفي أو استفهام؛ كقولك: ناجح محمد (ابن مالك، ١٤١٠هـ، ٢٧٣/١).

- جواز زيادة (من) دون أن تسبق بنفي أو استفهام؛ كقوله تعالى: {يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ} [الأحقاف: ٣١] (ابن مالك، ١٤١٠هـ، ١٣٨/٣).
- متابعتة للكوفيين في جواز تفسير ضمير الشأن بمفرد نحو: «ظننته قائماً زيد» ، خلافاً لجمهور النحويين حيث منعوا هذا التركيب وما شابهه (ابن مالك، ١٤١٠هـ، ١٦٣/١).

- متابعتة للكوفيين في جواز تعريف العدد المركب فذهب الأخفش إلى جواز تعريف الاسمين نحو: (عندي الأحد العشر درهماً)، خلافاً لأكثر

البصريين (ابن يعيش، ٢٠٠١م، ٥١/٦).

ومسائل أخرى كثيرة يطول المقام بذكرها.

الطبقة السابعة:

وفيها ستة نحويين: أبو عثمان المازني، وأبو حاتم السجستاني، والرياشي، والزيادي، والتوزي، وقطرب. أما المازني فأكثر المصادر تذكر نسبة إلى مازن بن شيبان بن ذهل، إلا أن الزبيدي يذكر أنه وجد حكاية عن الخشي بأنه مولى بني سدوس، نزل في بني مازن بن شيبان (الزبيدي، د.ت، ٨٧). وأبو حاتم السجستاني كان أعجمياً، وكذلك الرياشي، والتوزي، وقطرب، وأما الزيادي فيذكرون له نسباً عربياً يرجع إلى زياد بن أبيه (الزبيدي، د.ت، ٩٧، ٩٩).

التوزي:

هو عبد الله بن محمد مولى لقريش. كان يدعى أبا محمد القرشي وينسب إلى مدينة توز بأرض فارس، ولقب التوزي أبا الوزاز لخصه حركته وذكره، وهو من كبار علماء النحو واللغة البصريين، وأخذ عن أبي عبيدة الأصمعي، وقرأ كتاب سيبويه على أبي عمر الجرمي، عدّه المبرد من أعلم الناس بالشعر وفضله على الرياشي وقد كان كثير الرواية عن أبي عبيدة (السيرافي، ١٩٦٦م، ٦٦؛ والأنباري، ١٩٨٥م، ١٣٥؛ وياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ١٣٦٠/٣)، كان جليسا دار الخلافة في سامراء، توفي سنة ثلاثين ومئتين (الزبيدي، د.ت، ٩٩؛ والتنوخي، ١٩٩٢م، ٨٠).

جهوده وأثره:

كان التوزي ذا أثر لا يخفى في العربية، فقد عرف عنه طرح السؤال لمن يلقي من النحويين واللغويين، وكان يخطبهم ويخطبونه في اللغة والنحو، من ذلك ما حدث به سهل بن محمد، قال: «كنت أنا والتوزي عند أبي الحسن الأخفش، فقال لي التوزي: ما صنعت في كتاب (المذكر والمؤنث). قلت: قد جمعت منه شيئاً. قال: فما تقول في الفردوس؟ قلت: مذكر. قال: فإن الله تعالى يقول: {الذين يريون الفردوس هم فيها خالدون} [المؤمنون: ١١]. قلت: ذهب إلى معنى الجنة، كما قال: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها} [الأنعام: ١٦٠]، فأنت المثل. وكما قال الشاعر:

وإن كلاباً هذه عشر أبطن ... وأنت بريء من قبائلها العشر

فقال لي: يا عاقل، أليس الناس يقولون: نسألك الفردوس الأعلى؟ فقلت: يا نائم، هذه الحجة حجت، لأن الأعلى من صفات المذكر، ولو كان مؤنثاً قيل: العليا. فسكت خجلاً» (التنوخي، ١٩٩٢م، ٨٠-٨١). وكان التوزي يقول: «إن مصابكم رجل» توهماً أنه خبر «إن» فخطأه المازني في مجلس الخليفة حين سأله: كيف تقول: إن صريك زيدا ظلم؟ فقال التوزي: حسبي، وفهم (الأنباري، ١٩٨٥م، ١٤٣). وكان له مصنفات عديدة، وهي مشتركة بين النحو واللغة مثل: كتاب الأمثال، وكتاب الأضداد، وكتاب الخيل وأسنانها وعيوبها وإضمائها ومن نسب إلى فرسه وسبقها، وكتاب فعلت وأفعلت، وكتاب النودار (القفطي، ١٩٨٢م، ١٢٦/٢).

الطبقة الثامنة:

وفيها نحويان اثنان كلاهما عربي: أبو العباس المبرد، وأبو العلاء محمد بن أبي زُرعة الباهلي.

الطبقة التاسعة:

وفيها تسعة نحويين، وهم أصحاب المبرد: أبو إسحاق الزجاج، وأبو بكر محمد بن السري السراج، وأبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل العسكري المبرمان، وأبو زرعة الفزاري، وأبو الحسن علي بن سليمان بن الفضل الأخفش، وابن درستويه، وأبو بكر بن أبي الأزهر، وأبو بكر محمد بن شقير النحوي، وابن الخياط. أما الزجاج والسراج والمبرمان فهم عرب كلهم ذكرت أنسابهم وقبائلهم، وأما أبو زرعة والأخفش الصغير، فلا تذكر المصادر عن نسبهم ولا ولائهم شيئاً، وأبو زرعة لا يعرف له سوى هذه الكنية، وابن درستويه أعجمي كما سيأتي ذكره، وأبو بكر بن أبي الأزهر لا يعرف عنه سوى أنه أديب بارع من تلاميذ المبرد (الزبيدي، د.ت، ١١٦؛ والسيوطي، د.ت، ٤٦٧/١)، وأما ابن شقير فيبدو من نسبه أنه عربي (القفطي، ١٩٨٢م، ٦٩/١)، وابن الخياط تذكر المصادر أنه كان من أهل سمرقند مما يوجب بأنه أعجمي

(الأنباري، ١٩٨٥م، ١٨٥؛ وياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ٢٣٠٩/٥).

ابن دُرستويه

هو أبو محمد عبد الله بن جعفر بن دُرستويه القسوي الفارسي، تلميذ المُبرّد في النحو وولي ابن قتيبة (الزبيدي، د.ت، ١١٦؛ والخطيب البغدادي، ٢٠٠٢م، ٨٥/١٦، والأنباري، ١٩٨٥م، ٢١٣؛ وياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ١٥١١/٤)، (قديم من مدينة فسا في صباه إلى بغداد، وأستوطنها، وبرع في العربية، وصنف التصانيف، ورزق الإسناد العالي، وكان ثقة) (الذهبي، ٢٠٠٦م، ١٠٠/١٢). أخذ الحديث واللغة وأجاد فيهما وهو واحد ممن اشتهروا من علماء عصره وعلا قدرهم، كان واسع العلم وجيد التصنيف مليح التأليف وأخذ عنه جماعة من الفضلاء من أهل الحديث منهم الدارقطني وغيره، توفي سنة سبع وأربعين وثلاثمائة وقد عرف عنه أنه كان شديد الانتصار للبصريين في النحو واللغة وكان في الحديث ثقة عند ابن منده والحسين بن ثمان الشيرازي وضَعَفَهُ هبة الله اللالكائي توفي سنة ٣٤٦ هـ (الصفدي، ٢٠٠٠م، ٥٧/١٧-٥٨).

جهوده وأثره:

يكتسب ابن دُرستويه أهميته في النحو العربي من اتجاهين: الأول: ذاتي يتعلق به شخصياً وبما تركه من مؤلفات لها أهميتها في النحو وغيره مثل: تفسير كتاب الجرمي، والإرشاد في النحو، وكتاب الهجاء، وشرح الفصح، والرّد على المُفضّل الضبي في الرّد على الخليل، وكتاب الهداية، وكتاب المقصور والممدود، وكتاب غريب الحديث، وكتاب معاني الشعر، وكتاب الحي والميت، وكتاب التوسط بين الأخفش وعلب في تفسير القرآن، وكتاب خبر قس بن ساعدة، وكتاب الأعداد، وكتاب أخبار النحويين، وكتاب الرّد على الفراء في المعاني، وله كتب عديدة شرع فيها ولم يكملها (ابن خلكان، د.ت، ٤٥/٣). ويبدو واضحاً لمُتأمل عناوين هذه الكتب سعة علم الرجل، وتبحره في اللغة والأدب على حدّ سواء، فهو شارح لكتب النحو واللغة والحديث وتفسير القرآن ومُفسّر لها، ومؤلف لكتب النحو والأخبار، وموغل في مُجاذبات النحويين والرّد عليهم أو الدفاع عنهم، وهذا أمر لا يستطيعه إلا الفحول من العلماء، وربما يكون من أوائل من تصدوا للكتابة في المساجلات والتجاذبات النحوية مُتمثلة بالرّد على المخالفين من النحويين، فقد عرف عنه أنه كان شديد الانتصار للبصريين كما تقدّم. والاتجاه الثاني كونه تلميذاً للمُبرّد وهذه الطبقة كلها من تلاميذ المُبرّد، فهم نقلوا كتابه وعلمه، ومن المعلوم أن مكانة المُبرّد في طبقته لا تقل أهمية عن مكانة سيبويه في طبقته، والمقتضب للمُبرّد لا يقل أهمية عن الكتاب لسيبويه، فكل الكتابين كان لهما أثر كبير في المدرسة البصرية والنحو العربي عموماً. ويُزاد على ذلك كله كون الرجل من الرواة الذين نقلوا لنا أخبار النحويين، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً، وهذا فضل يُزاد على فضله، قال عنه الذهبي: «الإمام العلامة، شيخ النحو، أبو محمد عبد الله بن جعفر بن دُرستويه بن المُرزبان القارسي النحوي، تلميذ المُبرّد. سمع يعقوب القسوي فأكثر له عنه تاريخه، ومشخته، وسمع ببغداد من عباس بن محمد الدوري، ويحيى بن أبي طالب، وأبي محمد بن قتيبة، وعبد الرحمن بن محمد كزبان، ومحمد بن الحسين الحنيني. قدم من مدينة فسا في صباه إلى بغداد، وأستوطنها، وبرع في العربية، وصنف التصانيف، ورزق الإسناد العالي، وكان ثقة» (الذهبي، ٢٠٠٦م، ١٠٠/١٢). وهذه شهادة عظيمة من عالم جليل مثل الذهبي بحق ابن دُرستويه. وكان من أهل التفسير أيضاً، فقد جاء ذكره في موسوعة التفسير بأنه المُفسّر النحوي، اللغوي: شيخ النحو العلامة (الزبيدي، ٢٠٠٣م، ١٣٤١/٢).

الطبقة العاشرة:

وفيها تسعة نحويين، خمسة منهم أصحاب الرجاج وهم: أبو الفهد البصري، وأبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الرجاجي، وأبو سعيد السيرافي، وأبو علي القسوي، وعلي بن عيسى الوراق؛ وواحد منهم من أصحاب الأخفش علي بن سليمان وهو الميمني؛ وثلاثة منهم أصحاب بن دُرستويه وهم: أبو طاهر، والكرمان، وأبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي. أما أبو الفهد البصري فلا يبدو من ترجمته أنه عربي؛ لأنهم لا يذكرون له نسباً، ولا يعرف سوى بهذه الكنية، وأما الرجاجي فقد ذكر ابن خلكان أنه بغدادي داراً ونشأة، نهاوندي أصلاً ومولداً، ويُفهم من هذا أنه فارسي (ابن خلكان، د.ت، ١٣٦/٣)، والسيرافي فارسي أيضاً كما سيأتي ذكره، وأبو علي القسوي كما يبدو من اسمه

أنه من مدينة قسا وهي من بلاد فارس كما لا يخفى، وأمّا عليّ بن عيسى الوراق فقد ذكر الذهبي أنه هروي، وهراة من أكبر مدين خراسان وهي ما يعرف بأفغانستان اليوم، وهذا يجعله في عداد الأعاجم أيضاً (الذهبي، ٢٠٠٣م، ٨٠٢/٧)، وأمّا الميدي فلم أجد له ذكراً ولا ترجمة عند أحد سوى الزبيدي الذي ذكر أنه من أصحاب الأخفش عليّ بن سليمان دون ترجمة (الزبيدي، د.ت، ١٢٠)، وأمّا أصحاب ابن درستويه، فابو طاهر لا يذكر عنه شيء في كتب التراجم، سوى ما ذكر الزبيدي أنه عبد الله بن عمر بن محمد بن أبي هاشم المقرئ ولم يعرف بعد ابن مجاهد مثله (الزبيدي، د.ت، ١٢٠)، ولا شيء يذكر عن نسبه ولا ولاته، وأمّا الكرمانى فذكر ياقوت أنه أبو عبد الله الكرمانى النحوي الوراق ولا شيء أيضاً عن نسبه وولاته (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ٢٥٤٨/٦)، ولكن اسمه يفصح عن بلاده؛ لأن كرمان مدينة من مدين بلاد فارس، وأمّا أبو عليّ إسماعيل بن القاسم البغدادي فهو المشهور بأبي عليّ القالي صاحب المؤلفات الماتعة وهو مولى من موالي بني مروان والقالي نسبة إلى قرية «قالقلا» من أعمال مازكرد، من إقليم أرمينية في تركيا (الذهبي، ٢٠٠٦م، ١٥٣/١٢؛ والزركلي، ٢٠٠٢م، ٣٢١/١).

أبو سعيد السيرافي:

هو الحسن بن عبد الله بن المرزبان، أبو سعيد السيرافي، وسيراف بلد من أرض فارس على البحر، معتزلي من أصحاب الجبائي (الزبيدي، د.ت، ١١٩)، وكان أبوه مجوسياً اسمه بهزيار، وابنه أبو سعيد هو من سمّاه عبد الله (ابن الساعي، ٢٠٠٩م، ٣٣٢)، وهو من أهم العلماء المتبحرين في مختلف صنوف العلم، درس ودرس القرآن والقراءات وعلوم القرآن، والنحو، واللغة، والفقه، والفرائض، والكلام، والشعر، والعروض والقوافي والحساب؛ وعلوماً أخرى سوى هذه. وكان من أعلم الناس بنحو البصريين، وينتجل في الفقه مذهب أبي حنيفة من أهل العراق (الأنباري، ١٩٨٥م، ٢٢٧؛ وابن الساعي، ٢٠٠٩م، ٣٣٢). وقد أفتى على مذهبه في جامع الرصافة خمسين سنة، فما وجد له خطأ، ولا غير له على زلة، وعاش بتعداد معروف بالثقة والديانة والأمانة والزناة. وكان كثير العبادة حتى قيل إنه صام أربعين سنة أو أكثر (السيوطي، د.ت، ٥٠٧/١)، (قرأ على ابن مجاهد القرآن، وقرأ على أبي بكر بن السراج، وعلى أبي بكر مبرمان، وقرأ أحدهما عليه النحو، وقرأ الآخر عليه الحساب. وكان زاهداً يأكل من كسب نفسه، وكان لا يخرج إلى مجلس القضاء إلا بعد أن ينسخ عشر ورقات، يأخذ أجرتها عشرة دراهم، تكون بقدر مؤنته. ثم يخرج إلى مجلسه. وكان نزيهاً عفيفاً، جميل الطريقة حسن الأخلاق) (الأنباري، ١٩٨٥م، ٢٢٨). توفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة (الصفدي، ٢٠٠٠م، ٤٩/١٢).

جهوده وأثره:

كان لأبي سعيد السيرافي دور جليل وأثر بارز في تاريخ العربية، من ذلك:

١ - تبسيط العربية، وتيسير التصنيف النحوي، ففي الوقت الذي كان فيه كثير من النحويين يجنحون إلى تعقيد الصنعة اللفظية، وتعسير القواعد النحوية ولاسيما الأعاجم منهم بحكم عجمتهم أو صعوبة انسياب العربية على ألسنتهم، نجد السيرافي خلاف ذلك فقد عرفت عنه البساطة والوضوح في الكلام حتى قيل فيه: «النحويون في زمانهم ثلاثة، واحد لا يفهم كلامه، وهو الرماني، وواحد يفهم بعض كلامه، وهو أبو علي، وواحد يفهم جميع كلامه، وهو أبو سعيد السيرافي» (الذهبي، ٢٠٠٣م، ٥٦١/٨)، وقد كان له كتاب يسمى (الإقناع في النحو: لم يتمه وتمه ابنه يوسف، وكان يقول: وضع أبي النحو على المزابل بكتاب الإقناع، يريد أنه سهله حتى لا يحتاج إلى مفسر) (ابن الساعي، ٢٠٠٩م، ٣٣٣).

٢ - كانت له مؤلفات تشهد لعلمه وفضله في العربية وغيرها من علوم الدين، وقد أثرى بهذه المؤلفات المكتبة العربية اللغوية القديمة، وساهم في تميز المدرسة البصرية وتفوقها حين شرح كتاب سيبويه شرحاً عظيماً يقع في ثمانية عشر جزءاً، لم يسبق إلى مثله حتى حسده عليه أبو علي الفارسي، ومن مؤلفاته: شرح كتاب سيبويه، وشرح الدررديّة، وألفاظ القطع والوصل، والإقناع في النحو، وشواهد سيبويه، والمدخل إلى كتاب سيبويه، والوقف والابتداء، وصنعة الشعر والبلاغة، وأخبار النخبة البصريين (السيوطي، د.ت، ٥٠٨/١).

٣ - كانت له مناسبات عديدة أشهرها تلك التي جرت بينه وبين متى بن يونس القناني الفيلسوف في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات سنة ٣٢٠هـ بعنوان: النحو والمنطق، أيهما أدق في معرفة صحيح الكلام من سقيمه، وسديده من مدخوله؟ وفيها أفحم

السِّيرافيّ خصمه أيّما إفحام، وهذا جانبٌ شيقٌ منها، قال أبو سعيد: «والتَّحُوُّ منطقٌ ولكنّه مسلّوٌ من العربيّة، والمنطقُ نحوٌ ولكنّه مفهومٌ باللغة، وإنّما الخلافُ بين اللفظِ والمعنى أنّ اللفظَ طَبِيعِيٌّ والمعنى عَقْلِيٌّ، ولهذا كان اللفظُ بائداً على الزَّمانِ يقفُو أثرُ الطَّبِيعِيَّةِ بأثرٍ آخرٍ من الطَّبِيعِيَّةِ، ولهذا كان المعنى ثابتاً على الزَّمانِ لأنَّ مُسْتَمَلِي المعنى عقلٌ، والعقلُ إلهيٌّ، ومادّةُ اللفظِ طَبِيعِيَّةٌ، وكلُّ طَبِيعِيٍّ متهافٌ... قال مَتَّى: يكفيني من لغتكم هذا الاسمُ والفعلُ والحرفُ، فأبى أتبلّغُ بهذا القدرِ إلى أغراضٍ قد هدّبتها لي يونانٌ. قال أبو سعيد: أخطأتَ لأنّك في هذا الاسمِ والفعلِ والحرفِ فقيزٌ إلى وصفِها وبنائها على التَّرتيبِ الواقِعِ في غرائزِ أهلِها، وكذلك أنت محتاجٌ بعدَ هذا إلى حركاتِ هذه الأسماءِ والأفعالِ والحروفِ، فإنَّ الخطأَ والتَّحريفَ في الحركاتِ كالخطأِ والفسادِ في المُتحرَّكاتِ، ... وأن تعلمَ أنّ لغةً من اللغاتِ لا تطابقُ لغةً أخرى من جميعِ جهاتها، بحدودِ صفاتها في أسمائها وأفعالِها وحروفِها وتأليفِها ... وما أظنُّ أحداً يدفعُ هذا الحكمَ أو يسألُ في صوابِهِ ممَّن يرجعُ إلى مَسَكَةٍ من عقلٍ أو نصيبٍ من إنصافٍ، فَمِنْ أَيْنَ يجبُ أن تثقَ بشيءٍ تُرجِمَ لك على هذا الوصفِ؟ بل أنت إلى أن تعرفَ اللغةَ العربيَّةَ أحوَجُ منك إلى أن تعرفَ المعانيَ اليونانيَّةَ...» (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ٨٩٩/٢). وهي مناظرةٌ طويلةٌ تُوحِي برجاحةِ عقلِ السِّيرافيّ، وتوقُّدِ ذهنِهِ وذودِهِ عن العربيَّةِ بأشدَّ ما يملكُ من قُوَّةِ الحُجَّةِ وبراعتِها. وله مُناظرةٌ أخرى مع أبي الحسنِ العامريِّ الفيلسوفِ النيسابوريِّ وهي أقصرُ من سابقَتِها (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ٩٠٩/٢).

المبحث الثاني: نحاة الكوفة. الطبقة الأولى:

في هذه الطبقة ثلاثة نحويين: أبو جعفر الرُّوَاسِيّ، ومعاذُ بنُ مُسْلِمِ الهَرَّاءِ، وأبو مسلمٍ. أمّا الأوليانِ فليسا عربيين كما سيأتي، وأمّا أبو مسلمٍ فلا تذكرُ المصادرُ شيئاً عن نسبه وولائه (الزبيدي، د.ت، ١٢٥).

أبو جعفر الرُّوَاسِيّ:

هو أبو جعفر محمد بنُ أبي سارة، وإنّما سُمِّيَ الرُّوَاسِيّ لِعَظَمِ رَأْسِهِ، وهو ابنُ أخي مُعاذِ الهَرَّاءِ، أبوه الحسن بنُ أبي سارة من موالِي مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرَظِيِّ وَكَانَ أَخَذَهُ عَنْ عَيْسَى بْنِ عَمْرٍ وَعَنْهُ أَخَذَ جَمِيعُ الْكُوفِيِّينَ فِي زَمَانِهِ عِلْمَ النَّحْوِ (الأنباري، ١٩٨٥م، ٥٠؛ والتنوخي، ١٩٩٢م، ١٩٤؛ والجبوري، ١٩٨٨م، ٩)، كما أخذَ عن أبي عمرو بنِ العلاء، وما زالَ يَتَقَدَّمُ فِي النَّحْوِ حَتَّى قَالَ عَنْهُ الْكَسَائِيُّ: «ما وجدتُ بالكوفةِ أحداً أعلمَ بالنَّحْوِ من أبي جعفرِ الرُّوَاسِيّ» (القفطي، ١٩٨٢م، ١٠٥/٤). كان رجلاً صالحاً، تُوفِّيَ سَنَةَ ١٨٧ هـ (الفيروزآبادي، ٢٠٠٠م، ١٠). مكانته وجُهودُهُ وأثرُهُ:

يُمكن تلخيصُ جهوده وأثرِهِ بالنِّقاطِ الآتية:

١ - كان الرُّوَاسِيّ أستاذَ الكَسَائِيِّ والفَرَّاءِ وأهلِ الكوفةِ في النَّحْوِ، وعالمُ الطبقةِ الأولى المُبرِّزُ من طبقاتِ الكوفيين وإمامهم (الزبيدي، د.ت، ١٢٥)، وهو أوَّلُ مَنْ وَضَعَ مِنَ الْكُوفِيِّينَ كِتَاباً فِي النَّحْوِ كما زعمَ ثعلبُ (الأنباري، ١٩٨٥م، ٥٠)، وهو بهذا يُعَدُّ مِنَ الْمُؤَسِّسِينَ لِلْمَدْرَسَةِ الْكُوفِيَّةِ، وهو يُعَدُّ أَيْضاً حَلَقَةً وَصَلَ بَيْنَ الْمَدْرَسَتَيْنِ الرَّئِيسَتَيْنِ كَالْأَخْفَشِ، فَقَدْ أَخَذَ النَّحْوَ عَنِ الْبَصْرِيِّينَ كما سبقَ وَعَلَّمَهُ لِأَهْلِ الْكُوفَةِ، ثُمَّ أَفَادَ مِنْهُ الْبَصْرِيُّونَ أَنْفُسَهُمْ كما ادَّعى هو بقوله: «أرسلَ إليَّ الخليلُ بنُ أحمدَ يطلبُ كتابي، فبعثتُهُ إليه، فقرأهُ ووضعَ كتابَهُ» (الأنباري، ١٩٨٥م، ٥٠). وإنَّ كَانَ هَذَا الْكَلَامُ لَا يُسَلِّمُ بِهِ فَقَدْ ذَكَرَ الْمُبَرِّزُ أَنَّهُ (ما عُرِفَ الرُّوَاسِيّ بِالْبَصْرَةِ، وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ صَبَّفَ كِتَاباً فِي النَّحْوِ فَدَخَلَ الْبَصْرَةَ لِيَعْرِضَهُ عَلَى أَصْحَابِنَا فَلَمْ يُلْتَفَتْ إِلَيْهِ، أَوْ لَمْ يَجْسُرْ عَلَى إِظْهَارِهِ لَمَّا سَمِعَ كَلَامَهُمْ) (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ٢٤٨٧/٦). لكن عُرِفَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْبَصْرِيِّينَ أَنَّ الْكُوفِيَّ الَّذِي يَذْكُرُهُ سِيبَوِيهِ فِي كِتَابِهِ وَالْأَخْفَشُ فِي آخِرِ كِتَابِ الْمَسَائِلِ وَيُرَدُّ عَلَيْهِ هُوَ الرُّوَاسِيّ (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ٢٤٨٧/٦؛ والقفطي، ١٩٨٢م، ١٠٦/٤).

٢ - ألَّفَ الرُّوَاسِيّ كُتُباً عَدِيدَةً فِي النَّحْوِ وَهُوَ صَاحِبُ أَوَّلِ كِتَابٍ نَحْوِيٍّ فِي الْكُوفَةِ كما سبقَ ذَكَرُهُ وَهُوَ كِتَابُ الْفَيْصَلِ وَقِيلَ: إِنَّهُ مَأخُوذٌ عَنْ

سيبويه، وله كُتُبٌ أخرى مثل: كتاب التَّصْغِيرِ، وكتاب معاني القرآن يُروى إلى اليوم، وكتاب الوقف والابتداء الكبير، وكتاب الوقف والابتداء الصَّغِيرِ وكتاب جامع في الجمع والإفراد (القفطي، ١٩٨٢م، ١٠٧/٤؛ والفيروزآبادي، ٢٠٠٠م، ١٠٥؛ والزبيدي، ٢٠٠٣م، ٢٠٢٤/٣).

٣ - كان من أهل القراءة روايةً ودراسةً، فقد سَمِعَ من الأعمش، وغيره، وأخذ منه الكسائي والقراء، ورَوَى عن أبي عمرو كتاب الحروف، وله في القراءات اختياريًا، واختيارًا في الوقوف (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١١٩١/٤؛ وابن الجزري، ١٣٥١هـ، ١١٦/٢-١١٧).

٤ - له آراء في التفسير والنحو، منها ما سُئِلَ الكسائي وابن إدريس عنه وهو كلمة (الصمد) فقال: الذي نُصَمِّدُ إليه الأمور. وسُئِلَ الرُّؤاسي فقال مثل ذلك: فقيل له: كيف جمعه؟ قال: جلَّ مَنْ سَأَلَتْ عَنْ اسْمِهِ لَا يُتَنَّى وَلَا يُجْمَعُ، فقيل: إذا سُمِّيَ به مخلوق؟ فقال: أصماد وصمدان (القفطي، ١٩٨٢م، ١٠٩/٤؛ والزبيدي، ٢٠٠٣م، ٢٠٢٤/٣). وغيرها كثير (الجبوري، ١٩٨٨م، ٤٣).

الطبقة الثانية:

وفيهما نحوي واحد هو الكسائي وهو أعجمي.

الكسائي:

هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الكسائي من بلاد فارس، مَوْلَى بني أسدٍ، وقد سُمِّيَ بالكسائي لأنه حين ارتحل إلى حمزة الرِّيَّات كان عليه كِسَاءٌ جيدٌ، فجلس بين يديه فقرأ عليه، ثُمَّ ذهب فافتقده حمزة، فقال: ما صنع صاحبُ الكساء الجيد؟ فسُمِّيَ الكسائي وقيل: لأنه أحرم في كسائه، وقيل غير ذلك (الزبيدي، د.ت، ١٢٧، ١٢٨؛ والخطيب البغدادي، ٢٠٠٢م، ٣٤٥/١٣). قال أبو عبد الرحمن المقرئ: «كان الكسائي فصيح اللسان، لا يُفْظَنُ لِكَمَالِهِ، ولا يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّهُ يُعَرَّبُ، وهو يُعَرَّبُ» (الزبيدي، د.ت، ١٢٩). نشأ في الكوفة وأخذ النَّحْوَ عن الرُّؤاسي وهو أحدُ القُرَّاء السَّبْعَةِ المشهورين (التنوخي، ١٩٩٢م، ١٩٠)، ثُمَّ أَخَذَ مِنَ البَصْرِيِّينَ، قرأ كتاب سيبويه على الأخفش مقابل خمسين دينارًا كما مر معنا، قال أبو زيد: «قَدِمَ الكَسَائِيُّ البَصْرَةَ، يَأْخُذُ عَنْ أَبِي عَمْرٍو وَعَيْسَى وَيُونُسَ عِلْمًا كَثِيرًا صَحِيحًا، فَلَمَّا خَرَجَ إِلَى بَغْدَادَ، وَقَدِمَ أَغْرَابَ الحَطْمَةِ، وَأَخَذَ عَنْهُمْ شَيْئًا فَاسِدًا، وَخَلَطَ هَذَا بِذَلِكَ، فَأَفْسَدَ» (التنوخي، ١٩٩٢م، ١٩١). استعمله الخليفة العباسي المهدي مؤدبًا لابنه الرشيد، فأقام في بغداد ثُمَّ عَمِلَ مُؤَدِّبًا عِنْدَ الرَّشِيدِ أيضًا لولديه الأمين والمأمون، توفي هو ومحمَّد بن الحسن صاحب أبي حنيفة في يوم واحد سنة تسع وثمانين ومائة فقال هارون الرشيد: دفنت اليوم الفقه واللغة (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢م، ٣٤٥/١٣).

مكانته وجهوده وأثره:

ممَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الكسائي علَمٌ من أعلام النَّحْوِ العربيِّ، وقمَّةٌ من قمم النَّحْوِ الكوفيِّ، فهو من المؤسسين لهذه المدرسة، ويمكن بيان أثره فيما يأتي:

- ١ - أَخَذَ عَنْهُ الكَثِيرُ من علماء الكوفة النَّحْوِ كبارهم وصغارهم، وتتلَّمَدُوا عَلَيْهِ وهو أستاذهم (الزبيدي، د.ت، ١٣٥).
- ٢ - كانت له مناظرات عديدة مع كبار النَّحْوِيِّينَ البَصْرِيِّينَ من مشايخه مثل يونس بن حبيب الذي ناظره بالبصرة وفي مجلسه مناظرة النُّظير للنُّظير، وناظر سيبويه في بغداد في المسألة الرُّنْبُورِيَّةِ الشهيرة، وغلبته ظلمًا (الزبيدي، د.ت، ٦٨، ١٢٧).
- ٣ - كَانَ لَهُ أَثَرٌ لَا يُنْكَرُ فِي مَزْجِ مَبَاحِثِ النَّحْوِ بِالْفَقْهِ، فَقَدْ عُرِفَ عَنْهُ تَخْطِئَتُهُ لِلْفَقْهَاءِ بِنَاءً عَلَى اِحْتِمَالَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَمَبَاحِثِهَا، مِنْ ذَلِكَ مَا دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي يُونُسَ صَاحِبِ أَبِي حَنِيفَةَ فِي مَجْلِسِ الرَّشِيدِ، حِينَ سَأَلَ أَبَا يُونُسَ قَائِلًا: «يَا أَبَا يُونُسَ، مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ قَالَ لَامْرَأَتِهِ: «أَنْتِ طَالِقٌ أَنْ دَخَلْتَ الدَّارَ»؟ قَالَ: إِنَّ دَخَلْتَ الدَّارَ طَلَّقْتَ. قَالَ: أَخْطَأْتُ يَا أَبَا يُونُسَ. فَصَحَّحَكَ الرَّشِيدُ، ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ الصَّوَابُ؟ قَالَ: إِذَا قَالَ: «أَنْتِ» فَقَدْ وَجِبَ الْفِعْلُ، وَإِذَا قَالَ: «إِنْ» فَلَمْ يَجِبْ، وَلَمْ يَقَعْ الطَّلَاقُ. قَالَ: فَكَانَ أَبُو يُونُسَ بَعْدَهَا لَا يَدْعُ أَنْ يَأْتِيَ الْكَسَائِيُّ» (الزبيدي، د.ت، ١٢٧). وفي مجلس آخر من مجالس الرشيد أيضًا خطأ يعقوب في التلخيص ثلاثًا حين سأله عنه، فقال مخاطبًا الرشيد: «يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخْطَأَ يَعْقُوبُ فِي اثْنَتَيْنِ، وَأَصَابَ اثْنَتَيْنِ، أَمَّا قَوْلُهُ أَنْتِ طَالِقٌ طَالِقٌ طَالِقٌ، فَوَاحِدَةٌ؛ لِأَنَّ الثَّانِيَيْنِ الْبَاقِيَتَيْنِ تَأْكِيدٌ كَمَا تَقُولُ: أَنْتِ قَائِمٌ قَائِمٌ قَائِمٌ، وَأَنْتِ كَرِيمٌ كَرِيمٌ كَرِيمٌ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: أَنْتِ طَالِقٌ، أَوْ طَالِقٌ، أَوْ طَالِقٌ، فَهَذَا شَكٌّ، وَقَعَتِ الْأُولَى الَّتِي تُتَبَيَّنُ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: طَالِقٌ، ثُمَّ طَالِقٌ،

ثم طالق، فثلاث؛ لأنّه نسق، وكذلك طالق وطالق» (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢م، ٣٤٥/١٣).

٤ - كان يغلبه طبعه أحياناً فيكبوا ويلحن، ولكن اتقانه وسعة علمه وذريته الطويلة تجعل العلماء يلتمسون له الأعذار حتى الخليفة نفسه لا يجروا على تخطئته، من ذلك أنّه صلى يوماً بهارون الرشيد، فأعجبته قراءته، فغلط في آية، ما أخطأ فيها صبي قط، كما ذكره هو عن نفسه، أراد أن يقول: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} فقال: لعَلَّهُم يرجعين. قال: «فوالله ما اجتراً هارون أن يقول لي أخطأت، ولكنه لما سلمت، قال لي: يا كسائي، أي لغة هذه؟ قلت: يا أمير المؤمنين قد يعثر الجواد، فقال: أمّا هذا فنعم!» (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢م، ٣٤٥/١٣). ومن ذلك أيضاً أنّه كان في شعبان يوضع له منبر، فيقرأ على الناس في كل يوم نصف سبع فيختم ختمتين في شعبان، فقرأ يوماً في سورة الكهف: أنا أكثر منك، فنصب أكثر خطأ، فلما فرغ أقبل الناس يسألونه عن العلة في (أكثر) لم نصبه؟ فثار خلف في وجوههم واعتذر لهم بأنّه أراد في فتحه أقل [إن ترني أنا أقل منك مالا]، فقال الكسائي: «أكثر. فمحوها من كتبهم، ثم قال: يا خلف، يكون أحد بعدي يسلم من اللحن؟ قال: قلت: لا، أمّا إذا لم تسلم أنت، فليس يسلم أحد بعدك، قرأت القرآن صغيراً، وأقرأت الناس كبيراً، وطلبت الآثار فيه والنحو» (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢م، ٣٤٥/١٣). ولم يكن يتمادى في خطئه بل كان علمه يردّه إلى الصواب، ويردّه خلقه إلى الحق، فقد نقلوا عنه أنّه قال: «ربما سبقني لساني باللحن، فلا يمكنني أن أردّه» (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢م، ٣٤٥/١٣). حتى قيل له: «يا أبا الحسن من يعترض عليك؟ قل ما شئت، فأنت الكسائي، فأخذ لسانه بيده، فقال: قطعه الله إذا، إن قلت ما لا أعلم» (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢م، ٣٤٥/١٣).

٥ - برع في القراءات وتلمذ فيها على يد حمزة الزيات، ثم اتخذ له قراءة لنفسه فأخذها عنه الكثير، وهي من القراءات المتواترة المعروفة إلى هذا اليوم (الأنباري، ١٩٨٥م، ٥٨)، وكانت له حجة في قراءته بناءً على سعة علمه في النحو واللغة، من ذلك ما وقع بينه وبين حمزة حين دخل إلى الكوفة أول مرة، فقرأ من سورة يوسف [فأكله الذئب] من غير همز فاعترض عليه حمزة (فقال له الكسائي: وكذلك أ همز «الحوت»؟) وقرأ [فالتقمه الحوت] فقال: لا، فقال: فلم همزت «الذئب» ولم تهمز «الحوت»، وهذا [فأكله الذئب] وهذا [فالتقمه الحوت]! فرجع حمزة بصره إلى خلاد الأحوال - وكان أكمل أصحابه - فتقدم إليه في جماعة أهل المجلس، فناظروا فلم يصنعوا شيئاً (الأنباري، ١٩٨٥م، ٦٠).

٦ - وله مؤلفات مائة منها: معاني القرآن، ومختصر في النحو، وكتاب القراءات، وكتاب العدد، وكتاب اختلاف العدد، وكتاب مقطوع القرآن وموصله، وكتاب النوادر الكبير، وكتاب النوادر الصغير، وكتاب الهجاء، وكتاب المصادر (الأنباري، ١٩٨٥م، ٦٠-٦١).

٧ - كان من العلماء الأوائل الذين دخلوا قصور الخلفاء وأدبوا أبناءهم، واستغلوا قربهم من الخلفاء في الخلاف النحوي ليثبتوا آراءهم النحوية والعلمية ضد خصومهم، كما حصل في مناظرته مع سيبويه.

الطبقة الثالثة:

وفيهما تسعة نحويين: الفراء، والقاسم بن معن، والأحمر، وهشام بن معاوية الضريز، وأبو طالب المكفوف، وسلمويه، وإسحاق البغوي، وأبو مسحل، وقتيبة النحوي. أما الفراء فهو من بلاد فارس كما سيأتي، وأما القاسم بن معن فهو هذلي حليف بني زهرة من قرشي (ابن سعد، ١٩٦٨م، ٣٨٤/٦)، وهو ابن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الصحابي (السيوطي، د.ت، ٢/٢٦٣)، وأما الأحمر فلا تذكر المصادر شيئاً عن نسبه سوى أنّه علي بن المبارك الأحمر، وكذلك هشام بن معاوية الضريز، وأبو طالب المكفوف وسلمويه (الزبيدي، د.ت، ١٣٤، ١٣٥)، وسلمويه ليس النحوي اللثمي كما ذكره الصفدي (الصفدي، ٢٠٠٠م، ١٥/١٩٢)، بل هو غيره، صاحب الكسائي كما ذكر الزبيدي والسيوطي (السيوطي، د.ت، ١/٥٩٦)، وأما إسحاق البغوي فهو أيضاً ممن شحت المصادر بسيرته ونسبه ولكن هذا اللقب يكون في المشهور من أسماء العلماء نسبة إلى بلدة يقال لها: (بغ) وبغشور، وهي بلدة بخراسان بين مرو الروذ وهراة (ياقوت الحموي، ١٩٩٥م، ١/٤٦٧-٤٦٨)، وهو لقب عرف به غير واحد من العلماء، وأما أبو مسحل فهو عربي همداني (الأنباري، ١٩٨٥م، ١٢٨)، وأما قتيبة النحوي فهو عربي جعفي (السيوطي، د.ت، ٢/٢٦٥).

الفراء:

هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور الدلمي الفراء مولى بني عبيس وقيل: مولى لبني أسد والدليم من بلاد فارس كما هو معلوم (الزبيدي، د.ت، ١٣١؛ والخطيب البغدادي، ٢٠٠٢م، ٣٦٥/١؛ والأنباري، ١٩٨٥م، ٨١)، صاحب الكسائي والرؤاسي وتلميذهما، عالم أهل الكوفة، وأوسعهم علماً، أمير المؤمنين في النحو، وكان أخبارياً وعلامة في النحو. تتلمذ على يونس بن حبيب من البصريين، وكان رأساً في الحفظ، وكان إماماً ثقة في الرواية، أمل تصانيفه كلها حفظاً روى عن قيس بن الربيع ومثدّل بن عليّ وأبي الأخصّ وأبي بكر بن عياش، وعليّ بن حمزة الكسائي. وروى عنه: سلمة بن عاصم ومحمد بن الجهم السمرّي وغيرهما (التنوخي، ١٩٩٢م، ١٨٧؛ والأنباري، ١٩٨٥م، ٤٧، ٨١، ٨٣؛ والصالح، ١٩٩٦م، ٥٣٤/١؛ والذهبي، ٢٠٠٦م، ٢٩١/٨). من أعظم الشهادات التي قيلت فيه ما حكى عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، أنه قال: «لولا الفراء لما كانت غربيّة، ولسقطت؛ لأنه خلصها؛ ولأنّها كانت تتنازع وتدّعيها كلّ أحد» (الأنباري، ١٩٨٥م، ٨١). وقال ابن الأثير: «لو لم يكن لأهل بغداد، والكوفة من النّحاة إلا الكسائي، والفراء لكفى» (الذهبي، ٢٠٠٦م، ٢٩٢/٨)، وكان مؤدّباً لأبناء الخليفة العباسي المأمون أيضاً، مات سنة سبع ومائتين في طريق مكة عن عمر بلغ ثلاثاً وستين سنة (الذهبي، ٢٠٠٦م، ٢٩٢/٨).

جهوده وأثره:

كان الفراء ثاني اثنين قام عليهما المذهب الكوفي في النحو، فهو والكسائي من تأسست بهما المدرسة النحويّة، ويمكن بيان أثره فيما يأتي:

١ - يُعدّ من المؤسسين الأولين لمدرسة الكوفة كما أسلفت، بل هو أوسع الكوفيين علماً كما وصفه التنوخي (التنوخي، ١٩٩٢م، ١٨٧)، بل كان له فضل على العربيّة بأكملها، كما أشار إلى ذلك ثعلب فيما تقدّم، فقد صانها وخلصها من يد الأدياء الذين كانوا يتنازعونها.

٢ - كانت له مناظرات وصولات مع العلماء وفي مجالس الخلفاء، فقد كان طرفاً في مناظرات سيبويه للكوفيين وناظره أبو عمر الجريّ النحويّ صاحب الكتاب المختصر في النحو حين قدّم إلى بغداد أيضاً (الزبيدي، د.ت، ٦٨؛ والخطيب البغدادي، ٢٠٠٢م، ٤٢٦/١٠). فلم يمنعه أخذه عن البصريين من مناظرتهم والردّ عليهم. وكان ذكياً في مناظراته حتّى وصفه الجريّ بأنّه شيطان، وقد جاء في مناظراته أنّه هو من بدأ بالسؤال فقال للجريّ: «أخبرني عن قولهم: (زيد منطلق)، لم رفعوا (زيداً)؟ فقال له الجريّ: بالابتداء، فقال له الفراء: وما معنى الابتداء؟ قال: تعريته من العوامل. قال له الفراء: فأظهره. فقال الجريّ: هذا معنى لا يظهر. قال له الفراء: فمثله. قال له الجريّ: لا يتمثل. قال الفراء: ما رأيت كالיום عاملاً لا يظهر ولا يتمثل، فقال له الجريّ: أخبرني عن قولهم: (زيد ضربته). لم رفعت (زيداً)؟ فقال: بالهاء العائدة على زيد. قال الجريّ: الهاء اسم، فكيف يرفع الاسم؟ قال الفراء: نحن لا نبالى من هذا؛ فإنّا نجعل كلّ واحد من المبتدأ والخبر عاملاً في صاحبه في نحو (زيد منطلق)، فقال له الجريّ: يجوز أن يكون كذلك في زيد منطلق؛ لأنّ كلّ واحد من الاسمين مرفوع في نفسه، فجاز أن يرفع الآخر؛ وأمّا الهاء في (ضربته) ففي محلّ النصب، فكيف ترفع الاسم؟ فقال له الفراء: لم نرفعه به وإنّا رفعناه بالعائد. فقال له الجريّ: وما العائد؟ فقال له الفراء: معنى. فقال له الجريّ: أظهره. قال: لا يظهر. قال: مثله. قال: لا يتمثل. قال له الجريّ: لقد وقعت فيما فرزت منه. فيقال: إنهما لما اختلفا قيل للفراء: كيف رأيت الجريّ؟ قال: رأيت آية، وقيل للجريّ: كيف رأيت الفراء؟ قال: رأيت شيطاناً» (الأنباري، ١٩٨٥م، ١١٦).

٣ - كان له قدّم في رواية اللغة فضلاً عن الدراية فقد عرّف عنه أنّه أحد الرواة الذين رَوَوْا عن المُفَضِّل بن مُحمَّد بن يَعْلَى الصَّبِيّ الكوفي (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢م، ١٥١/١٥). ناهيك عن رواية الحديث التي أشرت إليها في أعلاه.

٤ - كان من العلماء الذين مزجوا بين الفقه والنحو، وأفاد من علم النحو في مسائل الفقه فقد ذكر أنّ بشر المُرَيْسِيّ سأله عن (رجل سها في سجدتي السهو؟ قال: لا شيء عليه، قال: من أين قلت ذلك؟ قال: قسّته على مذاهبنا في العربيّة، وذلك أنّ المُصَعَّر لا يُصَعَّر، وكذلك لا يُلْتَقَت إلى السهو في السهو، فسكت) (الأنباري، ١٩٨٥م، ٨٣-٨٤).

٥ - دخل قصور الخلفاء مؤدّباً لأبناء المأمون وكان ابناً المأمون يتسابقان على تقديم نعليه فبلغ ذلك المأمون فاستدعى الفراء وقال: من أعزّ الناس؟ قال: ما أعزّ من أمير المؤمنين. قال: بلى. من إذا نهض تقاثل على تقديم نعليه وليّا عهد المسلمين، فقدّم بين يديه أعذاراً، لكنّ المأمون رضي فعلهما وكافأهما عليه تكريماً لشأن العلماء (الحضري، ٢٠٠٨م، ٣٩٢/٢).

٦ - على الرغم من سعة علم الفراء وجلالة قدره إلا أنه كان يُعربُ كلامه إعراباً، ولا ينطقه سَجِيَّةً وذلك لغلبة الطبع، وأثر العُجمة، وقد لَحَنَ مرَّةً بين يدي هارون الرشيد، فقال له الرشيد: «أتلحن؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنَّ طباع أهل البدو الإعراب، وطباع أهل الحضرة اللحن؛ فإذا تحقَّظت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطبع لحنْتُ. فاستحسن الرشيد قوله» (الزبيدي، د.ت، ١٣١).

٧ - أثنى المكتبة العربية بمؤلفاته التي كانت مصادر أساسية ومراجع هامة لأهل اللغة منذ بداية التأليف إلى يومنا هذا، وكان أبرز هذه المؤلفات على الإطلاق معاني القرآن، وقد ألفه حين سأل أحد أصحابه وهو عمر بن بكير حين كان مع الأمير الحسن بن سهل، وكان يسأله عن أشياء في القرآن لا يجد لها جواباً فسأله أن يجمع له أصولاً ويضعها في كتاب، فأجابهُ الفراء إلى ذلك وجمع تلاميذه وجعل لهم يوماً في المسجد يقرؤون عليه القرآن وهو يُملِّي عليهم ويفسر القرآن وهم يكتبون، حتَّى أُملى ألف ورقة (الزبيدي، د.ت، ١٣٢-١٣٣). قال فيه أبو العباس: «وهو كتاب لم يُعمل قبله ولا بعده مثله، ولم يتهيأ لأحد من الناس جميعاً أن يزيد عليه شيئاً» (الزبيدي، د.ت، ١٣٢). وفضل هذا الكتاب عند أهل الكوفة كفضل كتاب سيبويه في أهل البصرة، وهو من أهم المصادر المتقدمة لآرائهم. ثم يليه في الفضل كتابه (الحدود)، وقد ألفه استجابةً لأمر المأمون بوضع كتاب يجمع به أصول النحو وما سُمع من كلام العرب، (فأمر أن تُفرد له حجرة من حُجر الدُور؛ ووُكِّل به جوارى وخدماء للقيام بما يحتاج إليه؛ حتَّى لا يتعلَّق قلبه، ولا تتشَوَّق نفسه إلى شيء؛ حتَّى إنهم كانوا يؤذِنونه بأوقات الصلوات. وصيِّر له الوراقين، وألزمه الأمانة والمنفقين؛ فكان الوراقون يكتبون؛ حتَّى صَنَّف «الحدود» وأمر المأمون بكتبه في الخزائن) (الأنباري، ١٩٨٥م، ٨١) وكان هذا قبل تأليف معاني القرآن سابق الذكر وقد جعل هذا الكتاب حدوداً كما سمَّاه، هذا حدُّ كان، وهذا حدُّ أن، وهذا حدُّ الاستثناء وهكذا حتَّى أتى على أبواب العربية جميعاً. وله أيضاً كتاب المُفصِّر والممدود وملازم ويافع ويفعه ومجموع ما كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة (التنوشي، ١٩٩٢م، ١٨٨؛ وابن خلكان، د.ت، ١٨١/٦)، وليس بين أيدينا اليوم أشهر من معاني القرآن.

الطبقة الرابعة:

وهي طبقة أصحاب الفراء وفيها خمسة نحويين: سلمة بن عاصم الضبي، وأبو عبد الله الطوال، ومحمد بن قادم، وابن سعدان، ومحمد بن حبيب وكلهم عرب، إلا أن محمد بن حبيب كان مولى العباس بن محمد العباسي (الزبيدي، د.ت، ١٩٨) ويبدو أنه ولاء جلف؛ لأنَّه لا يُعرف أبوه فنُسب لأمه واسمها حبيب (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ٢٤٨٠/٦).

الطبقة الخامسة:

وهي طبقة أصحاب سلمة وفيها نحوياً واحداً هو أحمد بن يحيى ثعلب.

ثعلب:

أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد، مولى بني شيبان، المعروف بثعلب (الزبيدي، د.ت، ١٤١)، (كان إمام الكوفيين في النحو واللغة في زمانه) (الأنباري، ١٩٨٥م، ١٧٣). سمع إبراهيم بن المنذر الحزامي، ومحمد بن سلام الجُمحي، ومحمد بن زياد الأعرابي، وعلى بن المغيرة الأثرم، وسلمة بن عاصم، وعبيد الله بن عمر القواريري، والزبير بن بكار، وغيرهم، وأخذ عنه أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش، وابن عرفة، وابن الأنباري وغيرهم (الفطحي، ١٩٨٢م، ١٧٣/١-١٧٤). قال عنه أبو بكر بن محمد التاريخي: «أصدق أهل العربية لساناً، وأعظمهم شأنًا، وأبعدهم ذكراً، وأرفعهم قدراً، وأوضحهم علماً، وأرفعهم جُلماً، وأثبتهم حفظاً، وأوفرهم حظاً في الدين والدُّنيا» (الأنباري، ١٩٨٥م، ١٧٤). ووُصِفَ بأنَّه ذو علمٍ كثير، وأنَّ له روايةً واسعة، وله أمالٌ جيِّدة (التنوشي، ١٩٩٢م، ١٨١). وأعظمُ شهادةٍ فيه من البصريين جاءت على لسان المُبرِّد معاصره ومنافسه حيث قال فيه: «أعلم الكوفيين ثعلب، فذكر له الفراء، فقال لا يَغشُرُهُ» الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢م، ٤٤٨/٦). كانت ولادته سنة مائتين في السنة التي مات فيها معروف الكرخي كما حدَّث هو عن نفسه، وطلب العربية وعمره ست عشرة سنة، وابتدأ بالنظر في حدود الفراء وله ثمان عشرة سنة، وحين بلغ خمساً وعشرين سنة ما بقي للفراء مسألة إلا وهو يحفظها ويضبط موضعها من الكتاب، ولم يبق من كتب الفراء في ذلك الوقت شيئاً إلا وقد حفظه (الأنباري، ١٩٨٥م، ١٧٤). قال الأزهري عنه وعن المُبرِّد: «وأجمع أهل هذه الصنعة من العراقيين وغيرهم أنَّهما كانا عالمي عصرهما، وأنَّ أحمد بن يحيى كان واحداً عصره... حافظاً لمذهب العراقيين، أعني

الكسائي والفراء والأحمر، وكان عفيفاً عن الأطماع الدنيئة، متورعاً من المكاسب الخبيثة» (الأزهري، ٢٠٠١م، ١/٢٤). عرف له الأمراء فضله فكان محمد بن عبد الله بن طاهر قد أجرى عليه في كل شهر ألف درهم، وعلى ختنيه ثلاثمائة درهم (القفطي، ١٩٨٢م، ١/١٨٤). مات يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين ومائتين (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢م، ٦/٤٤٨).

مكانته وجهوده وأثره:

كان ثعلب واحداً من أهم النحويين الذين عرفتهم المدرسة الكوفية خصوصاً والعربية عموماً، ويمكن إجمال جهوده وأثره فيما يأتي:

- ١ - حفظ علم الكوفيين، فقد عرف عنه أنه حفظ كتب الفراء ومسائله عن ظهر قلب، وحفظ علم الكسائي والأحمر كذلك، وكان حين يسأل عن شيء يجيب بقولهم؛ لشدة حفظه لكلامهم؛ فاستحق بهذا أن يصفه المبرّد بأعلم الكوفيين.
- ٢ - كان صاحب نقد في النحويين وأقوالهم؛ لكنه نقد العالم المُنصف المتواضع الذي يضع كل عالم في مكانه عارفاً مقدار نفسه دون أن يبخس أحداً حقّه، من ذلك أنه كان يُفضل الأخفش، وكان يقول: «هو أوسع الناس علماً» (الأنباري، ١٩٨٥م، ١٠٨). ومنه أيضاً قوله: «كان أبو عبد الله الطّوال حاذقاً بالعربية، وكان سلمة حافظاً لتأدية ما في الكتب» (الأنباري، ١٩٨٥م، ١١٧).
- ٣ - كان فضلاً عن علمه بنحو الكوفيين عالماً بالغريب ورواية الشعر القديم وكان من الحفاظ على ما ليس عليه أحد (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ٢/٥٤٢).

- ٤ - كان مولعاً بما عنده غير متطلع إلى ما عند غيره، فلم يكن يعلم مذهب البصريين ولا مستخرجاً للقياس ولا مُطالباً له، بل كان إذا ما سُئل عن شيء يقول: قال الفراء والكسائي، ومذهبه في ذلك مذهب المعلمين، فإذا سُئل عن الحجة والحقيقة في ذلك لم يأت بشيء (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ٢/٥٤٢). ولذلك كان مُقللاً في المناظرة، وقد سعى المبرّد إلى مناظرته كثيراً ولكنه يأتى وسئل ختته الدينوري عن ذلك، فقال: «المبرّد حسن العبارة؛ فإذا اجتمعاً حُكِم للمبرّد؛ فإن مذهب ثعلب مذهب المعلمين» (القفطي، ١٩٨٢م، ١/١٨٠). وحين حضر أبو بكر القاري إلى بغداد وحضر حلقة ثعلب ناظره بحضور الطلبة، فعلا كلامه كلام ثعلب، فشهد له الحاضرون بالعلب وعلو المنزلة (القفطي، ١٩٨٢م، ٤/١٠٠).

- ٥ - على مستوى التأليف والتصنيف، كانت له مصنفات في النحو واللغة، منها: كتابه الفصيح وهو أشهرها، وكتاب فعلت وأفعلت، والكتاب المعروف بالمصون في النحو، وكتاب اختلاف النحويين (التنوخي، ١٩٩٢م، ١٨١).

الطبقة السادسة:

في هذه الطبقة ستة نحويين وهم أصحاب ثعلب: هارون بن الحائك، وأبو موسى الحامض، والمعبد، وابن كيسان، وأبو بكر بن الأنباري، ونفطويه. أما هارون فلم يكن عربياً وهو من يهود الحيرة في الأصل (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ٦/٢٧٦٢)، وأما أبو موسى الحامض، فلا يُذكر له نسب ولا وقبيلة ولا ولاء، يذكرون أنه محمد بن سليمان أبو موسى الحامض النحوي فقط (القفطي، ١٩٨٢م، ٣/١٤١)، وأما المعبد فهو أحمد بن عبد الله، وهو عربي من ولد مغبد بن العباس بن عبد المطلب (الزبيدي، د.ت، ١٥٣)، وابن كيسان لا يُذكر له نسب ولا ولاء أيضاً ولكن يبدو من اسمه وسيرته أنه ليس بأعجمي، وأبو بكر بن الأنباري عربي مشهور له سيرة عظيمة في العلم والحفظ والإتقان (الزبيدي، د.ت، ١٥٣)، وأما نفطويه فهو عربي أيضاً اسمه أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان بن المغيرة بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة العتيقي الأزدي (الزبيدي، د.ت، ١٥٤).

هارون بن الحائك:

هو هارون بن الحائك النحوي الصري، أبرز أصحاب ثعلب، بل عدّ صنواً له، ووزن بميزانه في النحو، يهودي الأصل من أهل الحيرة، وهو من غلمان ثعلب، كان ذكياً وصاحب فهم بشهادة المبرّد، فقد تناظر يوماً هو والمبرّد فقال له: أراك فهماً فلا تُكابر؛ فقال: يا أبا العباس، أبدأ جُهدي في النحو؛ لأنه خُبرنا ومعاشنا، فقال له المبرّد؛ إذا كان خبرك فكابر إذا كابر! لا يعرف متى تُوفي على وجه التحديد، لكنه كان حياً سنة إحدى وتسعين ومائتين هجرية (الزبيدي، د.ت، ١٥١؛ وياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ٦/٢٧٦٢؛ والقفطي، ١٩٨٢م، ٣/٣٥٩).

جُهودُهُ وأثرُهُ:

١ - على مستوى التأليف كان له كتابان: كتاب العلل في النحو، وكتاب الغريب الهاشمي. وقيل: إن هذا الأخير لثعلب (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، ٢٧٦٢/٦).

٢ - كانت له بعض المناظرات ويُظنُّ أنَّه مات بسببها، منها أنَّ عبيد الله بن سليمان الوزير كان قد وجَّه إلى ثعلب لكي يكون مؤدِّباً لولده القاسم، فأبى عليه فأمره بإرسال بعض أصحابه، فوجَّه إليه بهارون الضري، فجاء عبيد الله بن سليمان بالزجاج وقال له: أريد أن أصطفي أفضلكما في العلم، فتساءلا. فسأل الزجاج هارون: كيف تقول: ضربت زيدا ضرباً؟ فأجاب هارون: ضربت زيدا ضرباً، فقال له: كيف نُكِّي عن زيد وعن الضرب! فأفحمه ولم يُجبه (القفطي، ١٩٨٢م، ٣٦٠/٣).

المبحث الثالث: الأثر العام للنحويين الأعاجم في العربية

لقد كان للنحويين الأعاجم أثر لا يخفى على ذي نظر في العربية خاصة وفي الإسلام عامة، ولا يُنكر هذا إلا جاحد أو مُتَعَنِّت، ولكن هذا الأثر يُقسَّم على قسمين: أثر إيجابي ساهم في تقدُّم الدراسات اللغوية العربية ونمايتها، وأثر سلبي وسَم اللغة بشيء من التراجع والضعف، ولكلا الأثرين مظاهره وأسبابه، ولهذا سأفرد كلاً منهما بحديث مُستقل:

أولاً - الأثر الإيجابي:

إنَّ الإيجابيات التي تركها هؤلاء النحويون في العربية كثيرة ومتنوعة، ويمكن إجمالها بالأمور الآتية: وضع النحو وتأسيسه واكتمال صرحه:

على الرغم مما اشتهر بين أهل اللغة أنَّ أول من وضع النحو هو أبو الأسود الدؤلي، إلا أنَّ عبد الرحمن بن هزُمَر كان ثالث ثلاثة اختُلف في أسبقيتهم في رسم النحو ووضع قواعده كما سبق ذكره في أول البحث وهو شاهد على طول باع الرجل في هذه الصنعة وتمكُّنه منها وأثره الفاعل في تقنين النحو ووضع قواعده، فنال بذلك هذا الفضل وتلك الشهرة بين أهل اللغة. وقد اشتهر أيضاً أنَّ أول من وضع النحو سلسلة من الرجال بعضهم تلاميذ أبي الأسود مثل عنبسة الفيل كما تقدَّم ذكره، وقد روي عن أبي عبيدة أنَّ (أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي، ثم ميمون الأقرن ثم عنبسة الفيل، ثم عبد الله بن أبي إسحاق؛ وقال ذلك؛ لأنَّ عصرًا واحدًا جمعهم، وإلا فقد تقدَّم زمان بعضهم على بعض في الأخذ والطلب) (القفطي، ١٩٨٢م، ٣٣٧/٣). وهم بهذا جزء من السلسلة التي وضعت النحو ونقلته لمن بعدها فقد كانت السلسلة تبدأ بأبي الأسود على الزجاج (وأخذ عنه النحو عنبسة الفيل، وأخذ عن عنبسة ميمون الأقرن، ثم أخذ عنه ميمون عبد الله بن أبي إسحاق الحَضرمي، وأخذ عنه عيسى بن عمر، وأخذ عن عيسى الخليل، وأخذ عن الخليل: سيبويه، وأخذ عنه سيبويه سعيد بن مسعدة الأخفش) (الذهبي، ٢٠٠٣م، ٧٣٦/٢). فالجزء الكبير من هذه السلسلة من الأعاجم كما هو واضح، وبعضهم مؤسس والبعض الآخر مُتمِّم مثل سيبويه وأبي جعفر الرُّواسي، ومعاذ بن مُسلم الهراء، وغيرهم فهؤلاء ساهموا في وضع القواعد وتدوينها وحفظها وكانوا على رؤوس مدارسهم النحوية فهم شيوخ لمن جاء بعدهم، فكانوا المُكَمِّلين لصرح النحو الذي ورثوه عن سبقتهم، وقد مرَّ ذكر التفصيل في ذلك.

تخريج سلسلة جديدة من النحاة:

ومن أبرز جهود هؤلاء النحويين أنَّهم خرَّجوا الكثير من التلاميذ الذين قادوا مسيرة النحو من بعدهم، فكان لبعضهم طبقات مستقلة من التلاميذ، مثل: الفراء، وهو أبرز علماء مدرسة الكوفة في زمانه، وكانت الطبقة الرابعة الكوفية كلها من تلاميذه. وكذلك أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، تحرَّج على يديه الطبقة السادسة الكوفية بجميع نحوييها عريهم وعجمهم. وهكذا استمرت سلاسل النحويين لتمتد إلى المدارس والأمصار الأخرى كبغداد والشَّام ومصر والمغرب والأندلس بفضل علم هؤلاء النحويين وجهودهم.

وضع المصنَّفات النحوية:

صنَّف النحويون الأعاجم الكثير من المؤلفات النحوية واللغوية، بل لا أغلو إذا قلت: إنَّهم أوائل من عرَّفوا بالتصنيف المُتكامِل في ذلك الوقت، فعلى الرغم من كون أبي الأسود الدؤلي الأول على الإطلاق في كتابة النحو ووضع قواعده إلا أنَّ فعله هذا لا يعدُّ ورفات كما ذُكر

في كُتُب اللغة، وهذه الورقات كانت المُلهم الأول لجميع من جاء بعده في تقنين قواعد النحو، وعلى رأسهم النحويون الأعاجم، ولكن من جاء بعده من النحويين قد ألفوا كتباً متكاملة عرفت بين أهل العلم وانتشرت وذاع صيتها على الرغم من فقدان الكثير منها، ومن ذلك كتاب الهمز لعبد الله بن أبي إسحاق الذي لم يصل إلينا، ومؤلفات عيسى بن عمر وأشهرها الإكمال والجامع، وقد فقد أيضاً إلا أن سيبويه قرأ فيهما كما ذكر ذلك المبرّد (ياقوت الحموي، ١٩٩٣ م، ١/٥، ٢١٤)، ومن الكتب المهمة ما صنّفه يونس بن حبيب مثل: معاني القرآن، واللغات والنوادر الكبير، والنوادر الصغير، والأمثال؛ ولعل أهم المصنفات في العربية من أولها إلى يومنا هذا كتاب سيبويه -رحمه الله- فما عرف الرمان في النحو مثل سيبويه ولا مثل كتابه على الإطلاق بشهادة الأولين والآخرين، وكل كلام فيه قليل، وكل شهادة فيه لا تفيده حقه، وكذلك تلميذه الأخفش الذي روى الكتاب عنه، ولو جاز لي القول لقلت إن أعظم فضل للعجم على العرب في اللغة هو ما وضعه سيبويه وما حفظه الأخفش فله درهما من عالَمين. وللكوفيّين مصنفات لا تقل شأنًا ولا مكانة عما وضعه البصريون فكان لهم القِدح المُعلّى فيما كتبوا ولكن سبق البصريّين قدّم هؤلاء وأخر أولئك، ومن مؤلفاتهم المتقدمة: الفيصل، والصغير، ومعاني القرآن، والوقف، والابتداء الكبير للرؤاسي؛ ومعاني القرآن، ومختصر في النحو، والعدد، والنوادر الكبير والصغير للكسائي، وغيرهم كثير مما سبق ذكره تفصيلاً.

مدّ القياس:

من أهم الآثار التي ترتبت على ولوج الأعاجم إلى اللغة العربية عمومًا وعلم النحو خصوصًا هو استعمال القياس في القواعد النحوية واستنتاجها، وهو أداة هامة وفاعلة في توسع القواعد النحوية ودقة استنباطها، وهو ثمرة لنزعة عقلية محضة اتسم بها علماء البصرة بادئ ذي بدء، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي إسحاق فقد عرفت عنه أنه كان أشدّ تجريدًا للقياس (أبو الطيب اللغوي، ١٤٣٠ هـ، ٢٥). حتى قال ابن سلام: «كان أول من بعج النحو ومدّ القياس والعلل» (ابن سلام، د.ت، ١٤/١)، وهذه ميزة لمدرسة البصرة تكاد تجدّها عند الكثير من نحاتها دون أهل الكوفة الذين عرفت عنهم التزامهم بما روي عن العرب وإن كان ضعيفًا.

تبسيط العربية

كان لبعض النحويين الأعاجم ميلًا نحو تبسيط اللغة وقواعدها بعد ما شاتها من تعقيد وصعوبة نتجت عن التوسع في القياس الذي ذكرته آنفًا وعلى رأس هؤلاء السّيرافي فقد عرفت عنه البساطة والوضوح في الكلام حتى قيل فيه: «النحويون في زمانهم ثلاثة، واحد لا يفهم كلامه، وهو الرّماني، وواحد يفهم بعض كلامه، وهو أبو علي، وواحد يفهم جميع كلامه، وهو أبو سعيد السّيرافي» (الذهبي، ٢٠٠٣ م، ٨/٥٦١)، وقد كان له كتاب يُسمى (الإقناع في النحو: لم يتمّه وتمّمه ابنه يوسف، وكان يقول: وضع أبي النحو على المزابل بكتاب الإقناع، يريد أنه سهله حتى لا يحتاج إلى مُفسّر) (ابن الساعي، ٢٠٠٩ م، ٣٣٣).

نقد النحو والنحويين

ومن الظواهر الهامة التي تُعد ثمرة إيجابية من ثمار النحويين الأعاجم ظاهرة النقد والرّد على النحويين، وهي ظاهرة أسهمت كثيرًا في نماء النحو وإحكام قواعده على أسس متينة، وتمثلت هذه الظاهرة بصورة مباشرة في المناظرات والمناقشات بين النحويين في مجالس الخلفاء والأمراء، وعلى رأس هذه المناظرات ما جرى بين سيبويه والكسائي في المسألة الرنبرية، ومنها مناظرات يونس حيث كانت له مجالس عديدة جمعت به عيسى بن عُمَر، وأبي عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، ومن أشدها تلك التي ذكر فيها روبة بسوء فانتصر له كما مرّ ذكره (الزجاجي، ١٩٨٣ م، ٢٣٣، بتصرف). وغيرها كثير خاصة بين رؤوس المدرستين العظيمتين؛ وتمثلت أيضًا بصورة غير مباشرة وهي الكتب والتعليقات التي زخرت بها المؤلفات النحوية القديمة.

الآراء النحوية الجديدة

وهي ظاهرة هامة في تاريخ النحويين الأعاجم فقد عرفت لبعضهم آراء مخالفة للمدرسة التي ينتمي إليها وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي إسحاق، فقد ذكر له سيبويه مجموعة من الآراء في كتابه، ومر معنا ذكرها في ترجمته، وكذلك يونس بن حبيب فقد كان له قياس في النحو ومذاهب يُفرد بها عن غيره من النحويين من أهل البصرة وغيرهم، وقد مر معنا كيف أفاد منه سيبويه إفادة كبيرة في كتابه، وتردّد ذكره في

الكتاب كثيرًا، وكان هذا الجانب عنده مبنياً على السماع غالباً، ولا سيما شعر روبة الذي كان يعتد به كثيراً ويُغلبه في الفصاحة على كثير من العرب، فكان يعتمد في جل أحكامه عليه، والأخفش كانت له آراء نحويّة أيضاً أثرى بها المدرسة البصريّة متأثراً بالمدرسة الكوفيّة، فقد تأثر بها كما أثر فيها، مُخالفاً إجماع البصريين في بعضها، ثم انتقلت تلك الآراء إلى المدرسة البصريّة. والحديث في هذا يطول لمن أراد الإسهاب وحسبي منه ما ذكرت.

هذا جانب من أثر النحويين الأعاجم ممّا يتوجّب ذكره من أثر إيجابي والتفصيل فيه وفي بعض ممّا لم أذكر هنا مطروح في صفحات كل نحويّ ممّا مرّ ذكره في هذا البحث وإنّما عرضت عن الاسترسال فيها تجنباً للإطالة.

ثانياً – الأثر السلبي:

لقد كان للنحويين الأعاجم بعض الآثار السلبية في العربيّة لا تخفى على الدارسين والباحثين، يمكن استنتاج بعضها من ترجماتهم والبعض الآخر من الإشارات الموثقة في كتب اللغة، وهذه الآثار لا تقدح بمكانتهم ولا بمنزلتهم وإنّما هي ناتج عرضي لكل صاحب صناعة، فقد يُفسد من حيث يريد الإصلاح، ويمكن إجمال هذا الأثر بعنوان عريض هو إفساد النحو، فمما لا يخفى أنّ الدراسات النحويّة واللغويّة قد انتشرت في بيئة العراق بادئ ذي بدء لأنّ الدواعي إليها أكثر، وكان أكثر النحويين من الأعاجم الذين يُسمّون بالموالي حتّى كان يُقال: النحو صناعة الموالي (الطويل، ١٩٨٤م، ٢٠)، وكان فصحاء العرب يعتقدون أنّهم ليسوا بحاجة إلى هذه الدراسة حتّى أنّ الشّعبيّ مرّ يوماً ببعض الموالي يتذكرون النحو فقال: لئن كنتم أوّل من أصلحه، إنكم أوّل من أفسده (الطويل، ١٩٨٤م، ٢٠). فالأثر العام هو إفساد النحو، ويمكن تبين كفيّته بالأمور الآتية:

إشاعة اللحن

لقد كان اللحن أوّل الطامات الكبرى التي مُنيت بها العربيّة مع دخول الأمم في الإسلام أفواجا، ووفودهم على مراكز الحواضر الإسلاميّة التي أصبحت هي مراكز العلم والمعرفة والقوّة، ولم يسلم من هذه الآفة كبار العلماء الأعاجم ناهيك عن عامّتهم، ومن أمثلة ذلك الكسائيّ الذي هو إمام من أئمة اللغة من أهل الكوفة الذي كان يغلبه طبعه فيلحن حتّى في القرآن، فقد مرّ معنا أنّه صلّى يوماً بهارون الرّشيد، فأعجبته قراءته، فغلط في آية، ما أخطأ فيها صبيّ قط، كما ذكره هو عن نفسه، أراد أن يقول: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} فقال: لعلهم يرجعين. قال: «فوالله ما اجتراً هارون أن يقول لي أخطأت، ولكنه لما سلّم، قال لي: يا كسائي، أي لغة هذه؟ قلت: يا أمير المؤمنين قد يعثر الجواد، فقال: أمّا هذا فنعم!» (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٢م، ١٣/٣٤٥). وكذلك الفراء كما سبق ذكره أنّه كان يُعرب كلامه إعراباً، ولا ينطقه سجيّة وذلك لغلبة الطبع، وأثر العجمة، وقد لحن مرّة بين يدي هارون الرّشيد، فقال له الرّشيد: «أتلحن؟» قال: يا أمير المؤمنين، إنّ طباع أهل البدو الإعراب، وطباع أهل الحضر اللحن؛ فإذا تحفظت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطبع لحن. فاستحسن الرّشيد قوله» (الزبيدي، د.ت، ١٣١).

تعقيد النحو

كان من الآثار الإيجابية السابقة تبسيط النحو على يد بعض النحويين الأعاجم، وهنا نذكر عكسه وهو ليس تناقضاً بل هو الأكثر الغالب في تاريخ النحويين الأعاجم الذين عقّدوا النحو وجعلوه صعباً على الدارسين ولا تزال هذه الصعوبة تصمّ الدرس النحويّ إلى اليوم، وهي معروفة منذ القدم، فقد نُقل عن بعض أهل الأدب: (كُنّا نحضّر عند ثلاثة مشايخ من النحويين؛ فمنهم من لا نفهم من كلامه شيئاً، ومنهم من نفهم بعض كلامه دون البعض، ومنهم من لا نفهم جميع كلامه، فأما من لا نفهم من كلامه شيئاً، فأبو الحسن الرّمانيّ، وأما من نفهم بعض كلامه دون البعض فأبو عليّ الفارسيّ، وأما من نفهم جميع كلامه فأبو سعيد السّيرافيّ) (الأنباري، ١٩٨٥م، ٢٣٤). وهذا التعقيد يمكن إرجاعه إلى بعض الأسباب، منها صعوبة اللغة على هؤلاء النحويين أنفسهم، ممّا جعلهم لا يُحسنون التعبير عنها وعن قواعدها إلّا بصورة يصعب فهمها، وهذا شيء يرجع إلى الأداء ولا يقتضي اطّراداً عند الجميع. والسبب الثاني: تمادي النحويين في القياس والعلل وتفرّيع القواعد ومزج النحو بالمنطق والفلسفة، وهذا أهم سبب من أسباب تعقيد النحو. والسبب الثالث: حبّ الإغراب والشّهرة والظهور بسبب التنافس المحموم بين النحويين على الحظوة لدى الخلفاء والأمراء، والحرص على التّكسّب ونيل الدنيا بالعلم، والتنافس بين

رجال المدارس النحوية انتصاراً للمذهب النحوي. وقد اشتكى النحويون أنفسهم من ظاهرة تعقيد النحو حتى قال الفارسي منتقداً الرُّماني الأخشيدي الذي عرّف عنه مزجُه بالنحوي: «إن كان النحو ما يقولُه الرُّماني فليس معنا منه شيء؛ وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شيء» (السيوطي، د.ت، ١٨١/٢). ولا عجب في ذلك فإن من ثقافة العجم في ذلك الزمان الولوع بالمنطق وتعلّمه وإقحامه هو والفلسفة في علوم العقيدة واللغة فشهد الاثنان تعقيداً لافتاً.

اشتعال الخلاف بين النحويين والمذاهب النحوية

لقد كان الخلاف النحوي على مستويات متعددة في أول ظهوره، ومن هذه المستويات ظهوره بين الأفراد، خاصة في زمن الخليل والرُّماني، ولكن هذا الخلاف لم يكن يشكل ظاهرة ملحوظة بين المدرستين الكبيرتين؛ لأن الرُّماني نشأ على نحو البصرة أو تأثر به تأثراً كبيراً، وأمّا الخلاف الحقيقي بين المدرستين فقد ظهر على يد سيبويه كما يشير الأستاذ الطويل إلى ذلك بقوله: «كان أول خلاف نحوي ظهر منسوباً لإحدى المدرستين ما أورده سيبويه في كتابه من حكاية أقوال أبي جعفر الرُّماني عندما يقول في كتابه: قال الكوفي» (الطويل، ١٩٨٤، م١، ٢٥). ولكنه خلاف سطحي لا يتعدى عرض المسائل والأقوال والرد عليها في بعض الأحيان، ولم يأخذ الخلاف بين المدرستين منحى حقيقياً ظاهراً إلا فيما جرى بين سيبويه والكسائي وما لحقه من تنافس بين التلاميذ والمؤيدين (الطويل، ١٩٨٤، م١، ٢٥)، ولا يخفى كونهما من العجم وكذلك كثير من تلاميذهما، وعلى رأسهم الأخفش الذي عدّه الدكتور شوقي ضيف المفتاح الأساسي لنشأة الخلاف بين المدرستين وهو الذي فتح أبواب الخلاف بين الكسائي والفراء من جهة وبين سيبويه من جهة أخرى وهو الذي مهّد لنشأة مدرسة الكوفة (الحديثي، ٢٠٠١، م١، ١٥٦). ثمّ اشتدّ الخلاف بعد ذلك ونشأت المدارس النحوية المختلفة وألفت المصنفات الكثيرة فيه على يد أولئك النحويين من العجم وغيرهم، وقد جرّ هذا الخلاف إلى الكثير من المساجلات والمناظرات والتعصب المقيت والحروب الكلامية بين المدارس النحوية ممّا أدّى إلى تعقيد النحو كما أشرت سابقاً والإغالي في تشعب مسائله وتفرعها وإثقال كاهل المتلقي لها.

المطولات المكزرة والسرفقات العلمية

ممّا يؤخذ على النحويين الأعاجم كما غيرهم من النحويين الآخرين، هو تأليف المطولات من الكتب التي شغبت المسائل النحوية وكرّرت فيها كثيراً من الحشو الذي هو عبارة عن فرضيات ومسائل للتمرين الذهني غير الواقع في اللغة، وتكرار ما قاله من سبقهم، منهم أو من غيرهم، والتنازع في تأليف الكتب ونسبتها لأصحابها ونقل كلٍّ منهم ممّا عند غيره واتهامه بأخذه كما رأينا بين الأخفش وغيره من النحويين وبين سيبويه وعيسى بن عمر والخليل والرُّماني، ولو تتبعنا جميع لطال بنا المقام، وهذا أثر مذموم بين علماء المدرستين خاصة؛ لما له من أثر في اشتداد الخصومة وإطالة النزاع والتعصب المقيت بين علماء المدرستين وتلاميذهما.

وعلى أية حال فمساوئ النحويين الأعاجم وأثرهم السلبي في العربية لا يكاد يذكر إذا ما قيس بفضائلهم ومحاسنهم وآثارهم الإيجابية التي حفظت للعربية رصيلاً كبيراً من نفائس الكتب الأخيرة بشئ فنون اللغة ومعارفها، ولا يوجد على وجه الأرض من لا عيب له فحسبهم ما قدّموا وما حفظوا وما نشروا من العلم الذي ساعد بعد كتاب الله في حفظ هذه اللغة وانتشارها بين الأمم وتصديرها للغات في سبيل قواعد ورصانة نظمها وكثرة مؤلفاتها وحفاظها على رونقها القديم الذي لم يبله الزمن ولم تُغيّرهُ العصور حتى عُدت العربية من أهم اللغات التي حافظت على قواعدها القديمة كما استعملت أول مرة في العالم.

الخاتمة

وفي الختام يمكن أن نخلص إلى بعض النتائج الهامة على وجه الإجمال، وهي كما يأتي:

- لم يكن للعلماء العرب وحدهم الفضل في نشأة الدراسات اللغوية الخاصة بهم بل كان للعلماء من غير العرب دور هام جداً في نشأة النحو وتطوره، فضلاً عن أثرهم الكبير في تعميده ونشره وتدريبه واستوائه على سوقه، حتى أصبح علماً مستقلاً له أسس متينة، وقواعد جليّة يستطيع كل طالب أن يظفر بها من مظانها الكثيرة، وهذا الدور المسكوت عنه للعلماء الأعاجم تغافلاً أو إنكاراً إنما هو أشبه بالسرارة التي

ولدت الانفجار الهائل في المؤلفات اللغوية التي تمتلئ بها المكتبة العربية اليوم فهو فضل كبير يحسب لهم ولا ينكره إلا جاحد.

- لقد رأينا في صفحات البحث السابقة تتلمذ الكثير من النحويين الأعاجم على يد النحويين العرب كالخليل وغيره، ولكنهم على الرغم من هذا سبقوهم في التصنيف والتأليف والشرح كسيبويه وغيره، فصار لهم السبق والفضل في تقنين النحو وتدوينه وحفظه ونشره.

- كان للنحويين الأعاجم أثر إيجابي كبير في النحو العربي على مستويات مختلفة، فقد شاركوا في وضع النحو وتأسيسه، ووضع المصنفات النحوية، ومد القياس، وتخريج سلسلة من النحويين الجدد، وتبسيط العربية، ونقد النحو والنحويين، والإتيان بآراء نحوية جديدة؛ مما أسهم في إثراء المكتبة النحوية، وتعزيز الدرس النحوي، وإرساء قواعده على أساس متين.

- على الرغم من الدور الكبير الذي أداه النحويون الأعاجم فيما ذكرته أعلاه إلا أنهم لم يكونوا هم أول من بدأ الدراسات النحوية ولا أول من أسسها مع كونهم أكثر المحتاجين إليها بل كانوا مشاركين للعلماء العرب الذين تنبّهوا مبكراً لضرورة وضع القواعد النحوية وتأسيس علم النحو سواء كانت بداية التأسيس على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه أو على يد الدؤلبي، فقد ثبت لبعض النحويين الأعاجم مشاركتهم في وضع القواعد وبداية التأسيس، وشهد على ذلك الكثير من النصوص التاريخية في المصادر العربية القديمة مما أثبتته في طيات البحث، ومما يشهد لجهدهم ويثبت فضلهم، وهو فضل ليس بالقليل كما بينت سابقاً بل يسعني أن أقول أنه ما شهدت لغة من لغات العالم ما شهدته العربية من إسهامات كبيرة فيها لغير أبنائها، حتى إن أبنائها أصبحوا يتعلمون في لغتهم العربية على أيدي العلماء من غير أهلها، ويتفخرون بالدراسة على أيديهم لما حظي به هؤلاء العلماء من صيت وسمعة وفضل بلغت أرجاء البلاد العربية والإسلامية.

- ومما يؤخذ على هؤلاء النحويين أنه كان لهم أيضاً أثر سلبي على النحو، لكنه أقل شأنًا إذا ما قيس بأثرهم الإيجابي، فقد عُرف عن بعضهم اللحن والخطأ في اللغة وهم أساتذتها، مما أوحى للمتعلمين بصعوبة اللغة حتى على لسان معلميها، وأسهموا بوجه ما في تعقيد النحو بكثرة التفريع على المسائل النحوية والجدل فيها، وإشغال الخلاف بين النحويين والمذاهب النحوية، والإسهاب في التأليف والمصنفات إلى درجة التكرار الممل والسرقعة العلمية.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير، محمد بن محمد بن يوسف، ١٣٥١هـ، غاية النهاية في طبقات القراء، (د.ط)، عني بنشره ج. برجستراسر، مكتبة ابن تيمية.
٣. ابن الساعي، علي بن أنجب بن عثمان بن عبد الله أبو طالب، تاج الدين، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، الدر الثمين في أسماء المصنفين، (ط ١)، تح: أحمد شوقي بنين - محمد سعيد حنثي، تونس، دار الغرب الإسلامي.
٤. ابن المبرد، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن حسن بن عبد الهادي الحنبلي الدمشقي الصالحي، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، الدر النقي في شرح ألفاظ الخريفي، (ط ١)، تح: رضوان مختار بن غربية، جدة - المملكة العربية السعودية، دار المجتمع للنشر والتوزيع.
٥. ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مغبد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البستي، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م، الثقات لابن حبان، (ط ١)، تحت مراقبة الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن الهند، دائرة المعارف العثمانية.
٦. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي، (د.ت) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (ط ١)، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر.
٧. ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد، ١٩٦٨ م، الطبقات الكبرى، (ط ١)، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر.

- ٨ . ابن سلام، محمد بن سلام بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبو عبد الله، (د.ت)، طبقات فحول الشعراء، (د.ط)، تح: محمود محمد شاعر، جدة، دار المدني.
- ٩ . ابن عساکر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، تاريخ دمشق، (د.ط)، تح: عمرو بن غرامة العمري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ١٠ . ابن مالك، محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجبائي، أبو عبد الله، جمال الدين، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، شرح تسهيل الفوائد، (ط١)، تح: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.
- ١١ . ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفي الإفريقي، ١٤١٤ هـ، (ط٣)، لسان العرب، بيروت، دار صادر.
- ١٢ . ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، الأنصاري، (د.ت)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، (د.ط) تح: د. عبد اللطيف محمد الخطيب، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- ١٣ . ابن يعيش، يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصل، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، شرح المفصل للزمخشري، (ط١)، تح: الدكتور إميل بديع يعقوب، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية.
- ١٤ . أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي الحلبي، ١٤٣٠ هـ، مراتب النحويين، (د.ط)، المكتبة العصرية.
- ١٥ . الأزهر، محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور، ٢٠٠١ م، تهذيب اللغة، (ط١)، تح: محمد عوض مرعب، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- ١٦ . الأنباري، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، (ط٣)، تح: إبراهيم السامرائي، الزرقاء - الأردن، مكتبة المنار.
- ١٧ . الأنباري، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، الزاهر في معاني كلمات الناس، (ط١)، تح: د. حاتم صالح الضامن، بيروت، مؤسسة الرسالة.
- ١٨ . الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين، (د.ت)، التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، (ط١)، تح: د. حسن هندواي، دمشق، دار القلم (من ١ إلى ٥)، وباقي الأجزاء: دار كنوز إشبيليا.
- ١٩ . البغدادي، عبد القادر بن عمر، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، (ط٤)، تح: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي.
- ٢٠ . التنوخي، أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي المعري، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، (ط٢)، تح: الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.
- ٢١ . الجبوري، عبد الله، ١٩٨٨ م، أبو جعفر الرؤاسي نحوي من الكوفة، ط١، الموصل، دار الكتب.
- ٢٢ . جمال الدين، محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي القنّي الكجراتي، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م، مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، (ط٣)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية.
- ٢٣ . الحديثي، خديجة، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م، الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، (د.ط)، الكويت، جامعة الكويت.
- ٢٤ . الحديثي، د. خديجة، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، المدارس النحوية، (ط٣)، اريد، دار الأمل.
- ٢٥ . الحضرمي، أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن علي بامخرمة، الهجراني الشافعي، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٨ م، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، (ط١)، غني به: بو جمعة مكري وخالد زواري، جدة، دار المنهاج.
- ٢٦ . الحلواني، محمد خير، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، المفصل في تاريخ النحو العربي، (ط١)، بيروت، مؤسسة الرسالة.

٢٧. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م، تاريخ بغداد، (ط ١)، تح: الدكتور بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
٢٨. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، ٢٠٠٣ م، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (د.ط)، تح: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي.
٢٩. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، سير أعلام النبلاء، القاهرة، دار الحديث.
٣٠. رؤبة بن العجاج، (د.ت) ديوان رؤبة بن العجاج، (د.ط)، اعتنى بتصحيحه وترتيبه وليم بن الورد البروسي، الكويت، دار ابن قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع.
٣١. الزبيدي، محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، أبو بكر، (د.ت)، طبقات النحويين واللغويين، (ط ٢)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف.
٣٢. الزيري، وليد بن أحمد الحسين وآخرون، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة «من القرن الأول إلى المعاصرين مع دراسة لعقائدهم وشيء من طرائفهم»، (ط ١)، مجلة الحكمة، بريطانيا، مانشستر.
٣٣. الزجاجي، عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي، أبو القاسم، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، مجالس العلماء للزجاجي، (ط ٢)، تح: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي - الرياض، دار الرفاعي.
٣٤. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي، أيار / مايو ٢٠٠٢ م، الأعلام، ط ١٥، دار العلم للملايين.
٣٥. سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، الكتاب، (ط ٣)، تح: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي.
٣٦. السيرافي، الحسن بن عبد الله بن المرزبان، أبو سعيد، ١٣٧٣ هـ - ١٩٦٦ م، أخبار النحويين البصريين، (د.ط)، تح: طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي - المدرسين بالأزهر الشريف، القاهرة، مصطفى البابي الحلبي.
٣٧. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (د.ت)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، (د.ط)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، لبنان / صيدا، المكتبة العصرية.
٣٨. الصالحي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، طبقات علماء الحديث، (ط ٢)، تح: أكرم البوشي، إبراهيم الزبيق، بيروت - لبنان، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.
٣٩. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، الوافي بالوفيات، (د.ط)، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث.
٤٠. الطنطاوي، الشيخ محمد، ٢٠٠٥ م، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، (ط ١)، تح: أبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل، مكتبة إحياء التراث الإسلامي.
٤١. الطويل، الدكتور السيد رزق، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م، الخلاف بين النحويين دراسة وتحليل وتقويم، (ط ١)، مكة المكرمة، المكتبة الفيصلية.
٤٢. العكبري، ابن برهان أبو القاسم عبد الواحد بن علي الأسدي، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، شرح اللمع، (ط ١)، تح: د. فارس فائز، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
٤٣. فاخر، علي محمد، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، تاريخ النحو العربي منذ نشأته حتى الآن، (ط ٢)، القاهرة، مكتبة الآداب.
٤٤. الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ط ١، دار سعد الدين

للطباعة والنشر والتوزيع.

- ٤٥ . القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٢ م، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ط ١، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة - دار الفكر العربي، بيروت - مؤسسة الكتب الثقافية.
- ٤٦ . المزي، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلي، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، (ط ١)، تح: د. بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة.
- ٤٧ . المقداد، محمود، ١٩٨٨ م، الموالي ونظام الولاء من الجاهلية الى اواخر العصر الاموي، (د.ط)، دار الفكر المعاصر. أفدت من فهرسه على هذا الرابط، https://library.iugaza.edu.ps/view_toc.aspx?id=part&7750=9999
- ٤٨ . النجار، محمد الطيب، الموالي في العصر الأموي، ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م، (ط ١)، القاهرة، دار النيل للطباعة.
- ٤٩ . النجدي، علي ناصف، ١٩٧٩ م، سيبويه إمام النحاة، (ط ٢)، القاهرة، عالم الكتب.
- ٥٠ . ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي الحموي، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، (ط ١)، تح: إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- ٥١ . ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي الحموي، ١٩٩٥ م، معجم البلدان، (ط ٢)، بيروت، دار صادر.
- ٥٢ . اليعموري، أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود، نور القبس، مرقم آليا في المكتبة الشاملة.